

الكتاب الثاني عشر

الفصل الأول

1- تنقسم قبدوقيا إلى أقسام كثيرة عرفت تغييرات عديدة. فالقبدوقيون الذين يتحدثون لغة واحدة، هم الذين يجاورون من جهة الجنوب ما يدعي طوروس الكيليكى، ومن جهة الشرق أرمينيا وكولهدا والشعوب التي تقطن في المنطقة الفاصلة بينهما وتحدث لغات مختلفة؛ ويجاورهم من جهة الشمال، البونتس الإيفيكسينى حتى مصب نهر هاليس، ومن جهة الغرب قبيلة البافلاغونيين، والغالطيين الذين استوطنوا فريجيا حتى منطقة الليكاونيين والكيليكين الذين يقطنون كيليكيا «التراخية»⁽¹⁾.

2- ومن هذه القبائل التي تتحدث لغة واحدة، عدّ القدماء قبيلة الكاتاونيين شعباً مستقلاً قائماً بذاته، وعارضوهم مع القبدوقيين بصفتهم قبيلة أخرى. ولدى تعداد الشعوب جاءت كاتاونيا عندهم بعد قبدوقيا، وجاء بعد ذلك الفرات والقبائل التي تقطن وراءه، حتى أنهم ألحقوا ميليتينا بكاتاونيا، وتقع ميليتينا هذه بين قبدوقيا والفرات متاخمة كوماجينا؛ وتشكّل ميليتينا $\frac{1}{10}$ قبدوقيا، وفق تقسيم البلاد إلى 10 عامليات⁽²⁾. فقد أنشأ هذا التقسيم في زمننا هذا ملوك البلاد الذين حكموا قبل أرخيلايوس. كما تشكّل كاتاونيا بدورها $\frac{1}{10}$ قبدوقيا. وفي زمننا هذا لكل من البلدين عامله الخاص⁽³⁾. ولكن بما أنه لا تظهر لدى الكاتاونيين أي اختلافات في اللغة أو في الاعتيادات الأخرى، مع القبدوقيين الآخرين، فإن اختفاء كل أثر لانتمائهم إلى شعب آخر أمر يثير الاستغراب. وفي الأحوال كلها كان هؤلاء يشكلون في السابق قبيلة خاصة؛ فقد ضمهم أرياراف الذي كان أول من نال لقب ملك القبدوقيين، إلى مملكته.

3- وتبدو هذه البلاد كأنها برزخ شبه جزيرة كبيرة واقعة بين بحرين: خليج إيسوس وصولاً إلى كيليكيا التراخية، والبونتس الإيفيكسيني بين سينوبس وساحل التيبارينيين. وعلى وجه التحديد تدعى البلاد الواقعة إلى الغرب من قبوقيا على هذا الجانب من البرزخ، كلُّها «شبه جزيرة»، وهي البلاد التي يدعوها هيرودوت «البلاد التي على هذا الجانب من نهر هاليس»⁽⁴⁾. إن هذه البلاد هي البلاد التي حكمها كيريز كاملة، وقد دعاه هيرودوت سيّد قبائل «هذا الجانب من نهر هاليس». ويدعو معاصرون آسيا بالبلاد التي على هذا الجانب من طوروس، مانحين إياها اسماً واحداً مع آسيا كلها. وتعيش في الشطر الشرقي من هذه البلاد، الشعوب التالية: البافلاغونيون، والفريجيون، والليكاونيون، ثمّ الطيبيون، والميسيون و«الإبيكتيتيون»⁽⁵⁾، وبعد ذلك طروادا وهليسبوتيا، وبعدهما في البحر، الإغريق، والإوليون، والإيونيون، ومما تبقى، الكاريون والليكيون؛ أمّا في داخل البلاد، فيعيش الليديون. وسأتحدّث عن الآخرين فيما بعد.

4- وفيما يخصّ قبوقيا، فقد انتزعها المقدنيون من الفرس مقسّمة إلى ولايتين. وسلّم المقدونيون، جزئياً برضاهم، وجزئياً رغماً عنهم بتحويل الولايتين إلى مملكتين. فدعوا إحداهما «قبوقيا نفسها»، و«قبوقيا التي عند طوروس»، بل دعوها أيضاً «قبوقيا العظمى»، ودعوا الأخرى «البونتس»، مع أن الآخرين يدعونها قبوقيا البونتية. ونحن لا نعرف حتّى الآن⁽⁶⁾ شيئاً عن بناء قبوقيا العظمى. فبعد وفاة الملك أرخيلايوس، قرر قيصر⁽⁷⁾ والسينات تحويلها إلى ولاية رومانية. وفي عهد أرخيلايوس والملوك الذين سبقوه، عندما كانت البلاد مقسّمة إلى 10 عامليات، كانت خمس منها تعدّ في طوروس: ميليتينا، وكاتاونيا، وكيليكيا، وتيانيتيس، وهارسافريتيس؛ والخمس الأخرى: لافيانسينا، وسارغارافسينا، وسارافينا، وهامانينا، وموريمينا. وفيما بعد فصل الرومان عن كيليكيا لأسلاف أرخيلايوس 11 عاملية، وعلى وجه التحديد منطقة كاستابال وكيببستر وصولاً إلى ديربا، التي كانت تابعة للقرصان أنتياتر؛ وأعطوا أرخيلايوس شطر كيليكيا التراخية الواقع حول إيلبوسا، وكلّ المنطقة الموحدة لأعمال القرصنة.

الفصل الثاني

1- وتبدي ميليتينا تشابهاً مع كوماجينا. ففي قبوقيا كلُّها، هذه البلاد

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثاني

وحدها التي تزرع الأشجار المثمرة فيها، وعليه فإنها لا تتج زيت الزيتون فقط بل تتج النبيذ الموناريتي الذي لا يقلّ جودة عن النبيذ الإغريقي. وتقع ميليتينا قبالة سوفينا التي لا يفصلها عنها سوى نهر الفرات الذي يجري بينها وبين كوماجينا الحدودية. وعلى ضفة النهر الأخرى تقع القلعة القبدوقية المهمة توميس، التي بيعت لحاكم سوفينا بمئة تالانت، ثمّ قدمها لوكولاً فيما بعد هدية لحاكم قبدوقيا مكافأة له على بسالته، وكان هذا قد حالفه ووقف إلى جانبه في حربه ضدّ ميتريدات.

2- وكاتاونيا سهل فسيح منخفض تنمو فيه شتى أنواع النباتات، ما عدا النباتات الدائمة الخضرة. والبلاد محاطة بالجبال، ومن بينها من جهة الجنوب، جبل الأمانوس، أحد ذيول طوروس الكيليكية؛ وأنتيطوروس الذي ينعطف بالاتجاه المعاكس. ويمتدّ الأمانوس فعلاً من كاتاونيا حتّى كيليكيا والبحر السوري غرباً وجنوباً، ويطوّق على هذا الامتداد كلّ خليج إيسوس وسهول الكيليكين الواقعة هنا، والتي تتّجه نحو طوروس. أمّا أنتيطوروس فيميل نحو الشمال، وبعد أن يدخل نحو الشرق قليلاً، ينتهي في أعماق البلاد.

3- وعلى هذا الأنتيطوروس تقع وديان عميقة ضيقة تقع فيها مدينة كومانا ومعبد إنيو التي يدعوها السكّان المحليون ما. وكومانا هذه مدينة كبيرة، لكنّ أكثر سكّانها مسكونون بالإله وخدم في المعبد. وسكّان المدينة من الكاتاونيين؛ وهم خاضعون على وجه العموم، لسلطة الملك، لكنّهم يخضعون في غالب الأحيان لسلطة الكاهن. والكاهن رئيس المعبد والعبيد المعبدين، الذين كان عددهم أثناء إقامتي هناك 6000 رجل وامرأة معاً. كما يملك المعبد مساحة كبيرة من الأرض الزراعية يتصرّف الكاهن بمردودها كيفما يشاء. ويعدّ الكاهن في قبدوقيا الشخصية الثانية من حيث الأهمية، بعد الملك. وينتمي هؤلاء الكهنة عادة إلى السلالة الملكية نفسها. وهذه الطقوس المقدّسة، طقوس أرطيميس تاوروبولوس، نقلها إلى هنا من سكيثيا التاورية، أوريستوس وأخته إيفيجينيا؛ وهنا وضعاً شعرهما⁽¹⁾ الذي حلّقه تعبيراً عن حزنهما؛ ومن هنا جاء اسم المدينة. ويجري عبر هذه المدينة نهر سار الذي يخرج عبر أخدود طوروس إلى السهول الكيليكية والبحر الذي يقع تحتها.

4- ويجري عبر كاتاونيا نهر بيراموس الصالح للملاحة الذي تقع منابعه في وسط السهل. ويقع هنا تجويف عميق كبير يمكن أن ترى فيه كيف تسيل المياه عبره على حيز كبير، مختبئة تحت الأرض، ثمّ تظهر إلى السطح بعد ذلك. وإذا ما رميت

سـتـرابـون ————— الجـغـرافـيـا

رمحاً من الأعلى إلى عمق التجويف، فسترى أن قوّة مقاومة ضغط الماء بالكاد تسمح للرمح أن يفوص. وفي عمق واتساع كبيرين يجري بيراموس في بادئ الأمر نهراً جباراً، لكنّه ما إن يبلغ طوروس حتّى يضيق بصورة تثير الاستغراب. ويثير الدهشة كذلك الانهدام الجبلي الذي يمتدّ مجرى النهر عبره. فكما ترى في الحجارة المشطورة شقين توافق نتوءات أحد الشقين مع تجويفات الشق الآخر (بحيث يمكن إعادة تركيبهما من جديد)، كذلك رأيت أنا بأمّ عيني التجويفات على الصخور (التي ترتفع على جانبي النهر لتصل تقريباً إلى قمة الجبل على بعد 2 أو 3 بليفرات واحدها عن الأخرى) الواقعة قبالة الحافتين. والتربة بين الصخور تربة صخرية كلّها؛ وثمة في الوسط أخدود عميق ضيق جداً، إلى درجة أنه يمكن لأيّ كلب أو أرنب أن يقفز عبره. وهذا الأخدود، هو مجرى النهر؛ وهو ممتلئ حتّى حافتيه، ويشبه قناة عريضة؛ وبسبب التواءات المجرى وضيقه الشديد، وبسبب عمق الأخدود فإنّ صخب الماء كصوت هزيم الرعد يصمّ آذان المارة من بعيد. وبعد أن يجتاز النهر الجبال، يحمل معه إلى البحر كميات مهولة من الطمي (جزء منها من كاتونيا، والجزء الآخر من السهول الكيليكية) عظيمة إلى حدّ جعلهم يتداولون النبوءة التالية:

سيكون هذا في زمن الأحفاد، عندما سيحمل بيراموس

نو المياه الفضية شاطئ البحر ليبلغ قبرص المقدّسة.

وفي مصر يحصل شيء ما مشابه أيضاً، لأنّ النيل هناك يحوّل البحر شيئاً فشيئاً إلى يابسة بما يحمله من طمي. ولذلك دعا هيرودوت مصر «هبة النيل»⁽²⁾، أمّا هوميروس فيقول، إنّ فاروس «كانت تقع في عرض البحر»⁽³⁾، لأنها في السابق كانت كما الآن، مرتبطة ببرّ مصر⁽⁴⁾.

5- وليس⁽⁵⁾ في سهل الكاتونيين، ولا في ميليتينا مدن، لكنّ هناك حصنين منيعين في الجبال: أزامورا وداستارك الذي يجري حوله نهر كارمال. ويقع هنا معبد أبوللون الكاتاوني الذي يعبد القبدوقيون في كلّ مكان من بلادهم؛ وبينون معابدهم على مثاله. أمّا العامليات الأخرى كلّها، ما عدا اثنتين، فليس فيها مدن. ومن العامليات الأخرى هنا بلدة في سارغارافسينا تدعى هيربا، ونهر كارمال الذي يصبّ بدوره⁽⁶⁾ في البحر الكيليكى. وفي عامليات أخرى يقع آرغوس، وهو حصن على مرتفع عند طوروس ونورا (يدعيان الآن نيرواس)، حيث صمد إيفمين لحصار طويل. وفي أيامنا هذه كان هذا الحصن مقرّ خزنة سيسين الذي كان يسعى لبسط سيطرته على

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثاني

قبدوقيا. كما كانت له كادينا التي اتّخذ منها عاصمة له، فقد كانت لهذا المركز السكاني بنية مدنية حقيقية. وعلى الحدود مع ليكاونيا تقع بلدة غارسافيدا التي يقولون، إنها في زمن ما، كانت المدينة الرئيسة في البلاد. ويقوم في موريمينا معبد لزيوس الذي يعبدونه في فيناسا التي تقع فيها قرية يقيم فيها ما يقارب 3000 عبد معبدي، ومساحة خصبة جداً من الأرض المقدّسة يرد الكاهن منها 15 تالانتاً في العام. ويشغل هذا الكاهن منصبه مدى الحياة، ومثله كاهن كومانا، الذي يعدّ الشخصية الثانية بعده من حيث الهيبة والوقار.

6- ويشغل المكانة الثالثة من حيث الهيبة، كهنوت معبد زيوس الداكي⁽⁷⁾، ومع أنه أقلّ مكانة من كهنوت إينيو، إلا أنّ له مع ذلك مكانة مرموقة. ويقع هنا ينبوع مياهه مالحة، حجمه كحجم بحيرة كبيرة؛ وتحيط به هضاب عالية شديدة الانحدار، بحيث يبدو النزول إليه كالنزول على سلّم. ويقال، إنّ منسوب مياهه لا يرتفع، بينما لا يرى لها أي مصرف.

7- ولا توجد المدن إلا في عامليتين فقط: في تيانيتيدس، مدينة تيانا الواقعة عند سفوح طوروس، قرب البوابات الكيليكية حيث يقع أسهل ممرّ إلى كيليكيا وسوريا. ويدعى هذا الممرّ «يفسيفيا الطوروسية». وتعدّ تيانيتيدس بلاداً خصبة، شطرها الأكبر سهلي. وتقع تيانا على منحدر سميراميس الحصين. وغير بعيد عن هذه المدينة تقع كاستابالا وكيبيترا، وهما مدينتان صغيرتان أكثر قرباً إلى الجبل. ويقع في كاستابالا معبد أرطيمس البيراسية، حيث يمشي الكهنة، كما يقال، حفاة على الجمر من غير أن يشعروا بالألم. وهنا غالباً ما يعيد بعضهم تكرار قصة أوريستوس وأرطيمس التاوروبولوسية، مؤكّدين على أنّ البرج دعي بالبرج «البيراسي» لأنهم جاؤوا به «من ذاك الشاطئ»⁽⁸⁾. وفي واحدة من العمليات العشر المذكورة- عملية تيانيتيدس- تقع مدينة تيانا (وأنا لا ألحق بهذه العمليات عاملتيّ كاستابالا، وكيبيترا، ومنطقة كيليكيا التراخية⁽⁹⁾)، حيث جزيرة إيلیوسا الشديدة الخصوبة التي عمرها أرخيلايوس كما ينبغي، وكان يقضي فيها أكثر وقته)، ومدينة مازاكي، المدينة الرئيسة للقبيلة، وهي تقع في كيليكيا. وتحمل هذه المدينة اسم «يفسيفيا» أيضاً، وهي تلقّب «بالقريبة من آرغيبوس»؛ وهي تقع فعلاً عند سفح هذا الجبل الذي يعدّ الأعلى بين الجبال الأخرى كلّها، وتكسو قمّته ثلوج أبدية؛ ويقول الذين صعدوا إلى قمته هذه (وهم قلّة)، إنه يمكن في أيام الصحو رؤية البحرين من هناك: البوننتس

والإيسِيّ. وعلى وجه العموم فإن طبيعة مازاكي نفسها ليست ملائمة للسكن المديني؛ فالمدينة ليس فيها ماء، وليست حصينة بطبيعتها الجغرافية، وبسبب إهمال الحكّام ليست محاطة بسور دفاعي (ربّما عن سابق قصد، كي لا تشكل الأسوار حصوناً يعتمد عليها سكّان السهول لممارسة الغزو والنهب انطلاقاً من التلال العصية على السهام). والضواحي أيضاً مجدبة ولا تصلح للعمل الزراعي، مع أنها أراض سهلية؛ إلاّ أنها رملية وصخرية بعض الشيء. وإذا ما تقدّمنا إلى الأمام قليلاً، تتبسط أمامنا على امتداد مراحل كثيرة سهول بركانية مليئة بالفوهات النارية. ولذلك يؤتى من بعيد بالمؤن الضرورية للعيش، وحتى ما يبدو أنه يشكل وفرة، يخفي في ثناياه خطراً محدقاً. ومع أن قبودوقيا كلّها تقريباً خالية من الغابات، إلاّ أنّ ضواحي آرغيبوس فيها قليل منها. ولكنّ المنطقة الواقعة إلى الأسفل من منطقة الغابات تتدلج النيران في أماكن كثيرة منها، وتوجد فيها أحواض من المياه الباردة الجوفية، ولكنّ المياه لا تخرج هنا إلى سطح الأرض، وكذلك النيران. ولذلك تغطي الأعشاب مساحات كبيرة من أراضي البلاد. والتربة في بعض الأماكن تربة مستتعية، وفي الليالي يتعالى اللهب من جوف الأرض. ويمارس الناس الذين يعرفون خاصيات المكان، قطع الأشجار هنا بحذر شديد؛ [فالعمل في هذه الأماكن] خطر بالنسبة لأكثر الناس، لكنّ الخطر الأكبر على القطعان لأنها غالباً ما تسقط في الفوهات الملتهبة المخفية.

8- ويجري في السهل الممتدّ أمام المدينة نهر يدعى نهر ميلاس، يبعد مجراه عنها 40 مرحلة تقريباً؛ وتقع منابعه في مكان أكثر انخفاضاً من موقع المدينة نفسها. وبما أنّ مجرى النهر يقع في مكان غير ملائم، والنهر نفسه إذ يفيض يشكّل مستنقعات وبحيرات، لذلك فالنهر لا ينفع السكّان في شيء؛ وفي الصيف يلوّث النهر الهواء في محيط المدينة فيعوق العمل في مقالع الحجارة، مع أنّ العمل فيها سهل في الأصل. فهناك تقع صفائح الحجارة التي يستخرج منها المازاكيون كثيراً من مواد البناء التي بينون منازلهم منها؛ لكنّ الصفائح الحجرية التي تغمرها المياه يصعب الوصول إليها واستخراجها. وهذه المستنقعات بركانية في كلّ مكان. وبما أنّ لميلاس ممرّ إلى هاليس⁽¹⁰⁾ عبر أحد الثغور، فقد أمر الملك أرياراف بإغلاقه، فحوّل بذلك السهل المجاور إلى بحيرة تشبه البحر؛ وأبرز هناك عدداً من الجزر من نوع جزر كيكلادا كان يقضي فيها أوقات لهو عندما كان شاباً. ولكن حينما انهار السدّ عادت المياه تجري ثانية، ففاض هاليس⁽¹¹⁾ وجرف معه طبقة مهمّة من تربة قبودوقيا، ودّمّر كثيراً

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثاني

من القرى والمساحات المشجّرة، كما خرب شطراً من منطقة الغلاطيين الذين كانوا يشغلون فريجيا. فطالب الغلاطيون أرياراف بأن يدفع لهم 30 تالانتاً من الفضة تعويضاً عن الأذى الذي لحق بهم، ورفضوا الأمر إلى الرومان ليفصلوا فيه. ومثل هذا الأذى لحق أيضاً بمدينة هيربا، لأنّ أرياراف كان قد أمر بأن يبنى هناك سدّاً يحجز مياه نهر كارمال. وبعد أن وقع انهدام في السدّ أدّى إلى انهياره، ودمّرت المياه عدداً من المناطق القريبة من مدينة مالّوس، اضطر الملك إلى دفع تعويضات للمتضررين.

9- ومع أنّ منطقة المازاكيين من نواحي كثيرة لا تصلح بطبيعتها للسكن، إلّا أنّ الملوك اختاروها لسبب رئيس، هو أنها تقع في وسط البلاد، بين المناطق التي تتوفر فيها مواد الغابات والحجر الصالح لبناء المنازل، والحشائش التي كانوا يحتاجون إليها بصفتهم رعاة. فالمدينة كانت بالنسبة إليهم، بمعنى ما، معسكر وحسب. وفيما عدا ذلك وجدوا الأمن والأمان بالنسبة لهم ولعبيدهم في الحصون الجبلية (التي كانت كثيرة هناك)، التي كان بعضها للملك، وبعضها الآخر «لأصدقاء»⁽¹²⁾ الملك. وتبعد مازاكي عن البونتس نحو 800 مرحلة نحو الجنوب، وأقلّ من هذه المسافة بمرتين عن نهر الفرات؛ وتبعد عن البوابات الكيليكية ومعسكر قورش⁽¹³⁾ مسافة ستة أيام عبر تيانا. وفي منتصف الطريق تقع تيانا على بعد 300 مرحلة من كيبسترا. ويعتمد المازاكيون في حياتهم قوانين كاروندس؛ كما ينتخبون النومود⁽¹⁴⁾ الذي يعدّ عندهم الفقيه الذي يؤوّل القوانين ويشرحها، مثله في هذا كمثل المستشار القانوني عند الرومان. وفي أثناء حملته على قبدوقيا، وضعهم الملك الأرمني تيغران في وضع حرج؛ فقد طرد الملك المازاكيين كلّهم إلى وادي الرافدين، وجعل منهم سكّاناً لتيغرانوكيرتا⁽¹⁵⁾. وعندما سقطت تيغرانوكيرتا فيما بعد، عاد من كان قادراً منهم على العودة إلى وطنه.

10- وتمتدّ هذه البلاد عرضاً من البونتس إلى طوروس حوالي 1800 مرحلة، وطولاً من ليكاونيا وفريجيا إلى الفرات شرقاً باتجاه أرمينيا، ما يقارب 3000 مرحلة. وهي غنية بالفلال، خاصة الأقماع، ومختلف أنواع المواشي، بسبب موقعها إلى الجنوب من البونتس، مع أنها أكثر برودة منه. أمّا في باغادانيا، ومع أنّ هذا السهل يقع في أقصى الجنوب (عند سفح طوروس)، إلّا أنه بالكاد تنمو الأشجار المثمرة هنا، وعلى أيّ حال توجد هنا مروج تسرح فيها الحمير البرية، ويوجد مثلها أيضاً في الشطر الأكبر من البلاد، خاصة قرب غارسافيرا، وليكاونيا، وموريمينا. وتتج قبدوقيا ما

يسمى الزينجفر «السينوبي»؛ وهو الأفضل بين أنواعه الأخرى؛ ولكن الزينجفر الإيبيري ينافسه. وقد أخذ تسمية السينوبي لأنّ التجار كانوا يرسلونه إلى هناك إلى أن تغلغت تجارة إفسوس ووصلت إلى سكّان قبدوقيا. ويروى أنه على مقربة من غلاطيا كان عمال المناجم لدى أرخيلايوس يستخرجون صفائح الكريستال الصخري وحجر العقيق. كما كان هناك مكان يستخرجون منه الحجر الأبيض (يشبه لونه لون العاج) بأحجام لا يتجاوز واحدا حجم حجر المسنّ الصغير، ومن هذه الحجارة كانوا يصنعون مقابض السيوف. إضافة إلى هذا كلّ كان هناك مكان فيه حجارة شفافة كبيرة⁽¹⁶⁾ تستخدم للنوافذ، وقد كانوا يصدرون منها إلى الخارج. وكانت المنطقة الجبلية الموازية لطوروس، هي التي تشكّل حدود البونتس وقبدوقيا؛ وتبدأ من الأطراف الغربية لهامانيا، حيث يقوم على المنحدر حصن داسميندا، ثمّ تمتدّ حتى الأطراف الشرقية للأفيا نسينا. وفي قبدوقيا عاميليتان، هما هامانيا ولافيانسينا.

II - بعد أن انتصر الرومان على أنطوخ بدأوا مباشرة بتنظيم شؤون آسيا، فعدّوا معاهدات صداقة وتحالفات مع الشعوب والملوك، وقد حدث أن منحوا هذا الشرف للملوك الآخرين كلّهم على المستوى الشخصي فقط، ما عدا ملك قبدوقيا الذي ناله هو وشعبه. وبعد أن انقطعت ذرية السلالة الملكية، وافق الرومان عملاً باتفاقية الصداقة والتحالف الموقعة مع هذا الشعب على منحه استقلاله، لكنّ السفراء الذين وصلوا إلى روما امتنعوا عن قبول الحرية الممنوحة لشعبهم بزعم أنهم عاجزين عن النهوض بأعبائها وطلبوا منحهم ملكاً. وقد استغرب الرومان وجود أيّ شعب كان تضنيه الحرية إلى هذا الحدّ [...]»⁽¹⁷⁾، وأجازوا لهم أن ينتخبوا من أوساطهم من يشاؤون فانتخبوا أريوبارزان. وعندما انقطعت ذريته في الجيل الثالث عيّن أنطونيوس أرخيلايوس ملكاً (مع أنه لم تكن له أيّ صلة به). إن هذه هي معلوماتي عن قبدوقيا الكبرى. أمّا كيليكيا التراخية التي أُلحقت بقبدوقيا الكبرى، فمن الأفضل أن نتحدّث عنها لدى وصفنا لكيليكيّا كاملة⁽¹⁸⁾.

الفصل الثالث

I - لقد أصبح ميتريدات إيفباتور ملكاً على البونتس. وقد امتلك هذا بلاداً تمتدّ حدودها من هاليس حتى منطقة التيبارانين وأرمينيا والبلدان الواقعة على هذا الجانب من هاليس: حتى أماستريا وبعض أجزاء بافلاغونيا. وامتلك علاوة على هذا، الساحل

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

الغربي وصولاً إلى هيراقليا، موطن هيراقليط الأفلاطوني، وامتلك بالاتجاه المفاير، الساحل الممتد حتى كولهدا وأرمينيا الصغرى؛ وقد ألحق هذه البلدان بالبونتس. وعندما انتصر بومبيوس على ميتريدات، امتلك البلاد التي تمتد داخل هذه الحدود فعلاً. ووَزَع المنتصر أجزاءها التي تقع باتجاه أرمينيا وقرب كولهدا على الحكّام الذين قاتلوا إلى جانبه، وقسّم ما تبقى إلى إحدى عشرة دولة وألحقها ببيثينيا، فتشكّلت من الشطرين ولاية واحدة. ووضع بومبيوس فريقاً من البافلاغونيين الذين كانوا يعيشون بينهما⁽¹⁾ تحت سلطة الملوك من أحفاد بيليمين، كما أخضع الغلاطيين لسلطة التيتراخ⁽²⁾ من سلالتهم الأصل. وفيما بعد أعاد الرومان رسم حدود البلاد من جديد، وعيّنوا ملوكاً وحكّاماً، ومنحوا الحرية لمدن، ووضعوا مدناً أخرى تحت سلطة حكّام، وأبقوا مدناً ثالثة تحت سلطة الشعب الروماني. وإذ أباشر وصف هذه البلاد، ينبغي عليّ أن أتحدّث عن وضعها الراهن والأمس ماضيها حيث يكون ثمة ضرورة لذلك. وهأنذا أبدأ من هيراقليا الواقعة في أقصى غربيّ هذه المنطقة.

2- إذا أبحرت من بروبونتيدا إلى البونتس الإيفيكسيني، فعلى يسارك تقع الأماكن المجاورة لبيزنطا (وهي للتراقيين، وتحمل اسم «الجهة اليسرى» للبونتس) أمّا على يمينك فتقع المناطق المحاذية لخلكيديا. وأوّل من يقطن هنا هم البيثينيون، يليهم المارياندينيون (بعضهم يدعوهم بالكافكونيين)، ثمّ البافلاغونيون قبل نهر هاليس، وأخيراً القبدوقيون الذين على البونتس وما يليهم من الشعوب وصولاً إلى كولهدا. وتدعى هذه المناطق كلّها «الجهة اليمنى» للبونتس الإيفيكسيني. وقد ساد إيفباتور⁽³⁾ على الساحل كلّه، من كولهدا حتى هيراقليا، أمّا المناطق الواقعة وراء هذه الحدود وصولاً إلى البونتس، فقد بقيت تحت سلطة الملك البيثيني. وبعد الإطاحة بالملوك، أبقى الرومان على الحدود نفسها: ألحقت هيراقليا بالبونتس، والمنطقة الواقعة وراءها ألحقت ببيثينيا.

3- ويتفق أكثرهم على أنّ البيثينيين الذين كانوا من قبل ميسينيين، تلقّوا اسمهم الجديد هذا من التراقيين، من البيثينيين والثينيين الذين استوطنوا هذه البلاد. وفيما يتعلّق بقبيلة البيثينيين يوردون للبرهان على صحّة وجهة النظر هذه، دليلاً مفاده أنه حتى وقتنا الراهن لا تزال بعض القبائل في تراقيا تدعى بيثينية، وبرهانهم بالنسبة للثينيين هو أنّ الساحل الممتدّ بالقرب من أبولونيا وساليديس لا يزال يحمل اسم ثينادس. كما كان البيبريكيون، الذين استوطنوا في ميسيا قبل هذه القبيلة، تراقيين

على ما أظنّ. وأنا أشرت سابقاً إلى أن الميسيسيين أنفسهم قد انحدروا من أولئك التراقين الذين يدعون الآن ميسيسيين. وهذا ما يروى عن هذه القبيلة.

4- ولا يتقل كلهم معلومات متماثلة عن المارياندينيين والكافكونيين: يقولون إن هيراقليا تقع في منطقة المارياندينيين، وأن الميلتوسيين هم الذين أسسوها؛ لكنهم لا يقولون أي شيء عن هؤلاء، من هم، ومن أين جاؤوا. ولا يقال شيء عن لغتهم، أو عن سمة إثنية تفريقية أخرى، لكنهم كانوا يشبهون البيشنيين. وبهياً لي أن هذه القبيلة بدورها كانت قبيلة تراقية أيضاً. وبحسب ثيويومبوس أن مارياندين حكم هذا الشطر من بافلاغونيا التي كانت خاضعة لحكام كثير؛ ثم هاجم بلاد البيبريكين واستولى عليها، لكنه تركها بعد ذلك ومضى بعد أن أعطاها اسمه. ويقولون أيضاً إن بناء هيراقليا الأوائل- الميلتوسيين- أرغموا المارياندينيين، حكام البلاد السابقين، على أن يخدموا عندهم كهيلوت، حتى أنهم أخذوا يبيعونهم في أسواق النخاسة، لكن داخل البلاد فقط (لأنهم اتفقوا بعضهم مع بعض على هذا)، على النحو الذي كانت عليه حال مشاعة المينويين⁽⁴⁾ عبيد الأرض لدى الكريتيين، ومشاعة البينيسيتين لدى التساليين.

5- أمّا بالنسبة للكافكونيين الذين يقولون، إنهم سكنوا على الساحل بعد المارياندينيين مباشرة، قبل نهر بارثينوس (مدينتهم ثيي)، فبعضهم يعدّهم سكيثيين، بينما يرى فيهم آخرون قبيلة من القبائل المقدونية، ويقول فريق ثالث، إنهم من البيلاسيغيس. وأنا كنت قد تحدّثت عن هؤلاء القوم في مكان ما من هذا الكتاب⁽⁵⁾. ووصل الأمر بكاليسفين في مؤلّفه «بناء التشكيل القتالي للسفن»، إلى حدّ أنه دسّ في نصّ هوميروس بعد البيت:

وفي كلّ مكان من كرومني وإيغالوس وصخور أريشينا استوطنوا

(الإلياذة II، 855)

البيتين:

قاد جحافل الكافكونيين بوليكليا الابن الصالح،

وهم الذين قطنوا عند مجرى بارثينوس في منازل جميلة.

فعلى حدّ قوله، إن الكافكونيين انتشروا من هيراقليا ومنطقة المارياندينيين إلى اللوكو-سوريين الذين ندعوهم قبدوقيين، وقبيلة الكافكونيين الذين يقطنون عند

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

ثيني، ووصلوا حتى نهر بارثينوس، بينما قطنت قبيلة الجينيتيين المجاورة التي كانت تمتلك كيتور، وراء بارثينوس، وحتى يومنا هذا لا يزال بعض الكافكونيين⁽⁶⁾ يعيشون عند نهر بارثينوس.

6- وتتوفّر هيراقليا على موانئ جيّدة، وهي على وجه العموم مدينة تستحق الذكر، لأنها أنشأت مستعمرات وعمّرتها، فكرسونيس وكالاتيدس من مستعمراتها. وكانت هذه في بادئ الأمر مدينة مستقلة، لكنّها خضعت بعدئذٍ لسلطة التيران بعض الوقت، ثمّ استعادت حريتها من جديد. وفيما بعد خضعت المدينة لسيطرة الرومان وكان يحكمها الملوك. واستقبلت المدينة المستعمرة الرومانية التي شغلت شطراً من المدينة نفسها وشطراً من ضواحيها. وتلقّى أدياتوريج بن دومنيكلوس تيتراخ الغلاطيين من أنطونيو شطراً من المدينة كان يشغله الهيراقليوتيون؛ وقبل وقت قصير من وقوع معركة أكسيوم هاجم هذا الرومان ليلاً وأبادهم، كما قال هو نفسه بعد ذلك، لكنّه فعل ذلك بإذن من أنطونيو. وبعد النصر الذي تحقّق في أكسيوم سار أدياتوريج أسيراً في موكب النصر، ثمّ أُعدم مع ابنه. وتدخل المدينة الآن قوام ولاية البونتس التي تمّ توحيدها مع بيثينيا.

7- ويجري بين خلكيديون وهيراقليا عدد من الأنهار؛ منها نهر بسيليس، ونهر كالبا، ونهر سانغاري الذي يذكره هوميروس⁽⁷⁾. وتقع منابع سانغاروس عند قرية سانغيا الواقعة على مسافة تقارب 150 مرحلة من نهر بيسينونت. ويجري هذا النهر عبر الشطر الأكبر من أراضي فريجيا إبيكتيت، كما يجري عبر شطر من بيثينيا، بحيث لا يبعد عن نيقوميديا أكثر من 300 مرحلة في النقطة التي ينضمّ فيها إليه نهر غال الذي يبدأ عند مودرا في فريجيا على الهيليسبونت. وهذه البلاد هي البلاد نفسها التي تدعى فريجيا إبيكتيت؛ وكانت تابعة فيما مضى للبيثينيين. وبعد أن كبر وازداد وأضحى نهراً صالحاً للملاحة (لأنه لم يكن فيما مضى صالحاً للملاحة)، شكّل سانغاروس عند مصبّه حدود بيثينيا. وتقع أمام هذا الشاطئ جزيرة ثينيا. وفي منطقة هيراقليا ينمو نبات خانق الذئب - الأكونيت⁽⁸⁾. وتقع هذه المدينة على مسافة تقارب 1500 مرحلة من معبد خلكيديونيا، و500 مرحلة من نهر سانغاروس.

8- وثيي مدينة صغيرة لم تكن تستحقّ الذكر لو لم تكن مسقط رأس فيليطروس مؤسس سلالة الملوك الأثاليين. ثمّ يليها نهر بارثينوس الذي يجري في منطقة تغطيها الزهور، فأخذ اسمه منها⁽⁹⁾. وتقع منابع النهر في بافلاغونيا نفسها. وتأتي بعد

ذلك بافلاغونيا وإينيتا. ومن غير المتفق عليه حتى الآن أيّ إينيتيين عنى هوميروس عندما قال:

الزعيم بيليمين تقدّم البافلاغونيين، وبقلب جسور
أخرجهم من إينيتا حيث موئل البغال البرية.

(الإلياذة II، 851)

ولكن يقال إن الإينيتيين لا وجود لهم في بافلاغونيا الآن، مع أن آخرين يزعمون أن هناك قرية تحمل هذا الاسم، وهي تقع على إيغالوس، على بعد 10 سخينات من أماستريا. فزينودوت يكتب «من إينيتا»⁽¹⁰⁾ ويزعم أن هوميروس يشير تحديداً إلى أميسا المعاصرة. ويقول فريق ثالث، إن هناك قبيلة تحمل مثل هذا الاسم تستوطن في جوار القبدوقيين، وقد حاربت إلى جانب الكيميريين، ثم طردت إلى البحر الأدرياتيكي. لكنّ الرأي الذي يحظى بأكبر قدر من القبول، هو الرأي القائل، إن هؤلاء الإينيتيين كانوا أهمّ قبيلة من قبائل البافلاغونيين التي خرج بيليمين منها. عدا عن هذا إن أكثر الإينيتيين حاربوا إلى جانبه؛ وبعد أن فقدوا زعيمهم، توجّهوا بعد سقوط طروادا إلى تراقيا، وفي أثناء تجوالهم حطّوا رحالهم في إينيتيكا المعاصرة. وبحسب بعض الكتاب إن أنتينور وأولاده شاركوا في هذه الحملة وسكنوا أقصى أطراف الأدرياتيكي، كما كنت قد أشرت في وصفي لإيطاليا⁽¹¹⁾. ولذلك اندثر الإينيتيون ولم يعد لهم أثر في بافلاغونيا.

9- يشكّل نهر هاليس الحدود الشرقية للبالفلاغونيين، و«يجري» هذا النهر بحسب هيرودوت⁽¹²⁾، «من الجنوب بين السوريين والبافلاغونيين ويصبّ في البحر الذي يدعى البونتس الإيفيكسيني»؛ وهو يعدّ القبدوقيين سوريين؛ وفعلاً، حتى الآن يدعونهم «لوكو-سوريين»، بينما يدعى الذين يعيشون على هذا الجانب من طوروس «سوريين». ولأنّ بشرة السوريين الذين يعيشون على هذا الجانب من طوروس لم تلوّحها الشمس، بينما لوّحت الشمس بشرة أولئك، لذلك أطلقوا عليهم هذا اللقب. ويقول بينداروس، إن الأمازونيس

قدن قوّات السوريين، الرماحين الجابرة،

(منقطع 53، بيوسه)

مشيراً على هذا النحو إلى سكناهم في تيميسكيرا. وهذه الأخيرة هي

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

للأميسيين وأميس، هي للسوريين البيض الذين يعيشون وراء هاليس. وهكذا فإن هاليس يمثل الحدود الشرقية للباflagونيين؛ وفي الجنوب، الفريجيون والغلاطيون الذين استوطنوا هناك؛ وفي الغرب، البيثينيون والمارياندينيون (لأن قبيلة الكافكونيين اندثرت في كل مكان)؛ أمّا في الشمال، فالبونتس الإيفيكسيني. وبما أنّ هذه البلاد انقسمت إلى منطقتين، داخلية وساحلية، وكلاهما امتدت من هاليس إلى بيثينيا، فقد ساد ميتريدات إيفاتور على الساحل الممتدّ حتّى هيراقليا، ولم تخضع له من المنطقة الداخلية⁽¹³⁾ سوى الأجزاء المجاورة (بعضها يمتدّ وراء هاليس)؛ وكانت حدود ولاية البونتس الرومانية تصل إلى هذه الأطراف. أمّا باقي أجزاء المنطقة الداخلية من البلاد فقد كان يمتلكها الحكّام المحليّون، حتّى بعد الإطاحة بميتريدات. وأنا سأتحدّث لاحقاً⁽¹⁴⁾ عن الباflagونيين الذين سكنوا المنطقة الداخلية (ولم يخضعوا لسلطة ميتريدات)؛ أمّا الآن فعليّ أن أعطي وصفاً للبلاد التي يحكمها، وهي تدعى البونتس.

10- وبعد نهر بارثينوس تأتي أماستريا، وهي مدينة تحمل اسم مؤسسها. وقد بنيت المدينة على برزخ تقوم الموانئ على جانبيه. وكانت أماستريا زوجة ديونيسيوس تيران هيراقليا، وابنة أوكسياثرا شقيق داريوس الذي عاصر الإسكندر. وقد أسست أماستريا المدينة من أربع قرى اتحدت بعضها مع بعض: سيسام، وكيتور، وكرومني (التي يذكرها هوميروس في وصفه للتشكيل القتالي للسفن الباflagونية)⁽¹⁵⁾، وثيي. لكنّ هذه الأخيرة سرعان ما انفصلت عن الجامعة، بينما بقيت الأخريات متّحدات؛ ومن المدن الثلاث دعيت سيسام وحدها أكروبوليس أماستريا. وكانت كيتور لزمن ميناء ألكسينوبسين، ودعيت على حدّ قول إيثور على اسم كيتور ابن فريكس. وتتمو في أراضي أماستريا بكثرة أفضل أنواع شجر الزّان، خاصة قرب كيتور. وإيغالوس عبارة عن شاطئ طويل امتداده حوالي 100 مرحلة؛ وتقع عليه قرية تحمل الاسم نفسه كان قد ذكرها هوميروس:

وفي كلّ مكان من كرومني وإيغالوس، وصخور أريثينا استوطنوا،

(الإلياذة II، 855)

لكنّ بعضهم يكتب:

كرومني وكوبال.

ويقولون، إن إريثينا المعاصرة تدعى إريثينا بسبب لونها⁽¹⁶⁾؛ وهذه عبارة عن

صخرتين. وتلي إيغالوس كارامبيس، وهي رأس بحرية تمتدّ شمالاً و نحو كرسونيس السكيثية. وأنا كنت قد ذكرتها مراراً وذكرت معها أيضاً رأس كريوميتوبون الواقعة قبالتها، والتي تشطر البونتس الإيفيكسيني إلى بحرين⁽¹⁷⁾. وتلي كارامبيس كينوليس، وأنتيكنوليس، ومدينة أبونوتيخوس⁽¹⁸⁾، وأرمينا التي ضُرب بها المثل:

من يعان من البطالة فليرفع أسواراً لأرمينا.

وهي مستوطنة للسينوبسيين وفيها ميناء.

II - وعلى بعد خمسين مرحلة من أرمينيا تقع سينوبس نفسها، وهي أبرز مدن هذا الجزء من العالم. وكانت تأسست على أيدي الميلتوسيين. وبعد أن أعدت أسطولاً وجهزته، فرضت سينوبس سيطرتها على البحر في هذا الجانب من الكيانين، أما على الجانب الآخر، فقد شارك السينوبسيون في كثير من المعارك إلى جانب الإغريق. ومع أن المدينة حافظت على استقلالها زمناً طويلاً، إلا أنها كانت عاجزة عن أن تصون حريتها حتى النهاية؛ فبعد أن حاصرها فارناك⁽¹⁹⁾، استولى عليها واستعبدها، ثم خضعت لخلفائه كلهم حتى ميتريدات إيفاتور، وبعده للرومان الذين حطموا جبروت هذا الأخير. وكان إيفاتور قد ولد في سينوبس وتلقى تربيته فيها. وأحاط الملك المدينة بمجد فريد، حتى أنه جعل منها عاصمة مملكته. وكانت الطبيعة نفسها، وكذلك الجهود التي بذلها الناس قد أعدت المدينة وأحسنّت تجهيزها بأسباب الراحة كلها؛ فهي شيّدت على برزخ شبه جزيرة تقوم على جانبيها الموانئ، ومحطات السفن، ومؤسّسات تملّح أسماك البلاميда الشهيرة التي أشرت إليها من قبل⁽²⁰⁾، ويصيد السينوبسيون ثاني أكبر كمية من هذه الأسماك، يليهم البزنطيون في المرتبة الثالثة. ويحيط بشبه الجزيرة ساحل تحدّه صخور فيها منخفضات تحتوي على ما يشبه الحفر التي تدعى «هينيكيادات». وعندما يصعد البحر تمتلئ هذه الحفر بالماء، الأمر الذي يجعل المكان عصياً، أضف إلى هذا أن سطح الصخور مغطى بنتوءات حادة تجعل السير عليها بقدم حافية أمراً متعذراً. ومع ذلك فإن الشطر الداخلي من البلاد، والمنطقة التي تلو المدينة، تربتها خصبة وتزيّنها حقول كثيرة جعلوا منها بساتين، خاصة في ضواحي المدينة. والمدينة نفسها، محصّنة بالأسوار تحصيناً جيّداً، ويزينها جمنازيوم رائع، وميدان تجاري، وأروقة. وعلى الرغم من هذا تمّ الاستيلاء على المدينة مرتين: في المرّة الأولى استولى عليها فارناك عندما هاجمها على حين غرّة، وبعد ذلك استولى

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

عليها لوكولا والتيران الذي استقرّ في المدينة. لأنّ فاكهيدس الذي عينه الملك على رأس الحامية، كان يعيش دائماً هاجس الخوف من الخيانة في داخل المدينة، فأغرق مواطني المدينة بالتعسف وأعمال القتل، الأمر الذي أفضى إلى تدني القدرات الدفاعية لهؤلاء. وهكذا سقطت المدينة. ولكنّ لوكولا أبقى على زينة المدينة، ولم يحمل منها سوى كرة بيلار السماوية، وتمثال أفتولييكوس⁽²¹⁾ الذي نحته سثينيديس، وكان السينوبسيون يرون في أفتولييكوس هذا مؤسس مدينتهم، ويبجلونه كإله. ويقع هنا موّحاه أيضاً. ويهيأ لي أن أفتولييكوس كان أحد مرافقي ياسون، وقد استولى على هذا المكان. وفيما بعد عندما أدرك الميلتوسيون أهمية موقع المكان وضعف سكّانه، استولوا عليه وأقاموا فيه مستعمرة، وهكذا بات شطر من المدينة وأراضيها ملكاً للمستعمرين. وتقع المدينة على مسافة 3500 مرحلة من المعبد⁽²²⁾ [الخلكيدي]، و 2000 مرحلة من هيراقليا، 700 مرحلة من كارامبيس. لقد كانت سينوبس مسقط رأس كثير من الشخصيات الشهيرة: الفيلسوفان: ديوجينوس الكلبي، وتيموثاوس باتريون والشاعر ديفيل الذي ألّف كوميديات والمؤرخ باتون الذي كتب «تاريخ فارس».

12- ويأتي بعد ذلك مصبّ نهر هاليس. وقد أخذ هذا النهر اسمه من مناجم الملح⁽²³⁾ التي تترسب في مجراه. وتقع منابع هاليس في قبوقيا الكبرى، في كاميسينا على مقربة من منطقة البونتس. وإذ يندفع غرباً بتيار جارف لا يلبث النهر أن يعطف شمالاً عبر منطقة الغلاطيين والباflagونيين، ليفصل بين هؤلاء الأخيرين و«اللوكو-سوريين»⁽²⁴⁾. وفي منطقة سينوبس وصولاً إلى بيثينيا، وعلى امتداد البلاد الجبلية كلّها، فوق الساحل المذكور، تقع غابة تعطي أفضل أنواع أخشاب بناء السفن التي يسهل تعويمها لتصل إلى البحر. كما ينمو في منطقة سينوبس نبات القيقب وشجر البندق الذي يصنعون منه الطاولات. وتقع الأراضي المستثمرة في البلاد كلّها، أعلى من مستوى سطح البحر بقليل، وهي مزروعة بشجر الزيتون.

13- وتلي مصبّ هاليس غازيلوتيدا وصولاً إلى سارامينا؛ وهذه المنطقة منطقة خصبة سهلة غنية بشتّى أنواع الغلال. وتسرح فيها أغنام أصوافها دقيقة ناعمة، نادراً ما تلقاها في قبوقيا كلّها والبونتس؛ كما تسرح فيها الغزلان التي نادراً ما توجد في أي منطقة أخرى. ويشغل الأميسيون شطراً من هذه البلاد، بينما أعطى بومبيوس شطرها الآخر إلى ديوتار، وأعطاه أيضاً المنطقة الواقعة قرب فارناكيا وترايبزوسيا وصولاً إلى كولبيدا وأرمينيا الصغرى. وأعلن بومبيوس ديوتار ملكاً على هذه البلدان

كأها، إضافة إلى تترارخيا⁽²⁵⁾ غلاطيا التي ورثها عن والده، وهي على وجه التحديد بلاد التولستوبوغيين. ولكن بعد وفاته ظهر له كثير من الورثة.

14- تلي غازيلون سارامينا، ومدينة أميس المهمة التي تقع على مسافة تقارب 900 مرحلة من سينوبس. وبحسب ثيوبومبوس أن الميلتوسيين هم أول من أسس هذه المدينة [...] ⁽²⁶⁾، تلاهم حاكم القبدوقيين، ثم أرسل الأثينيون مستعمرة إلى هناك تزعمها أثينوكليس، وتغيّر اسم المدينة فباتت تدعى بيريبوس. وقد أخضع الملوك هذه المدينة أيضاً لسلطتهم. فزيّنها ميتريدات إيفباتور بالمعابد، وبنى جزءاً آخر فيها. وحاصر لوكولا المدينة، كما حاصرها بعد ذلك فارناك الذي عبر من البسبور. ولكن قيصر الإلهي حرّر المدينة، إلا أنّ أنطونيو وضعها من جديد تحت سلطة الملوك. وأخيراً، بعد معركة أكسيوم⁽²⁷⁾، حرّرها قيصر أغسطس من جديد، وهي تنعم الآن بتنظيم جيّد. وعلاوة على أراضيها الرائعة، تملك المدينة أيضاً ثيميسكيرا، مكان إقامة الأمازونيس، وسيدينا.

15- وثيميسكيرا عبارة عن سهل يشاطئ البحر من جهة، فالبحر لا يبعد عن المدينة أكثر من 60 مرحلة؛ ومن جهة أخرى يقع عند سفوح سلسلة جبلية غنيّة بالغابات وتخرقها الأنهار التي تتبع من هناك. وثمة نهر هنا يدعى ثيرمودونت يعبّ مياه هذه الأنهار كلها، ويجري عبر هذا السهل، أمّا النهر الآخر المماثل له والذي ينبع من منطقة تدعى فاناريا، فيجري عبر هذا السهل نفسه، ويدعى نهر إريدا. وتقع منابع هذا النهر على البونتس نفسه وبعد أن يجري النهر في وسط مدينة كوماننا على البونتس، وعبر سهل دازيمونتيدا الخصيب نحو الغرب ينعطف شمالاً على مقربة من غازيورا نفسها، وهي العاصمة الملكية القديمة المهجورة الآن، ثمّ ينعطف ثانية نحو الشرق ليستقبل سكيلاك والأنهار الأخرى، ويجري على مقربة مباشرة من أسوار أماسيا مسقط رأسي، وهي مدينة حصّنتها الطبيعة نفسها أحسن تحصين، يخرج النهر إلى فاناريا. ويلتقي معه هناك نهر ليك (الذي تقع منابعه في أرمينيا) ويتحوّل أيضاً إلى إريدا. ثمّ يستقبل ثيميسكيرا وبحر البونتس هذا النهر. ولذلك يبقى هذا السهل دائم الخضرة؛ فهو قادر على إطعام قطعان من البقر، وأسراب من الأفراس. وتزرع في تلك الأراضي كميات كبيرة، بل الأصح أن نقول كميات لا حدود لها من الدخن وقصب السكر. فالري الوفير يضع حدّاً لأي ضرب من الجفاف، ولذلك لا يمكن أن يعرف سكّان هذه المناطق الجوع أبداً. ومن جهة أخرى يعطي منحدر الجبل كثرةً كثيرة من الغلال البرية:

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

العنب، والإجاص، والتفاح، والمكسرات، بحيث لو زار الناس تلك المنطقة في أي وقت من أوقات العام لوجدوا هناك وفرة من الثمار، إمّا على الشجر، أو تحت طبقات الأوراق المتساقطة. وبفضل وفرة الأعلاف يمكن الصيد هنا في كل وقت من أوقات السنة.

16- وبعد ثيميسكيرا تأتي سيدينا، وهي سهل خصيب، على الرغم من أنه لا يتمتع بوفرة من المياه كالتى لثيميسكيرا. ويقع على ساحله حصن يدعى حصن سيدا الذي على اسمه سمّي السهل سهل سيدينا، وحصن خاباكا، ومدينة فابدا. وتمتدّ قبل هذا المكان منطقة أميس. وهذه المدينة هي مسقط رأس أناس مشهورين بعلمهم: عالمي الرياضيات ديميتريوس بن رافين، وديونيسودوروس سمّي عالم الهندسة الميلوسي، والنحوي تيرانيون الذي قدرّ لي أن أستمع إلى محاضراته.

17- وبعد سيدينا تقع مدينة فارناكيا الحصينة، تليها مدينة ترابيزونت الإغريقية، وهي ميناء بحري يبعد عن أميس 2200 مرحلة. ومن هنا إلى فاسيس حوالي 1400 مرحلة، وعليه فإن المسافة الكليّة من المعبد⁽²⁸⁾ [الخلكيدوني] إلى فاسيس تقارب 8000 مرحلة، أو أقلّ أو أكثر بعض الشيء. وإذا أبحرت إلى هذا الشاطئ من أميس، فتظهر لك رأس الهيراقليين البحرية أولاً، ثمّ رأس باسونيوس ونهر جينيت، فمدينة كوتورا⁽²⁹⁾ الصغيرة، التي أرسلت منها مستعمرة إلى فارناكيا؛ ثمّ تأتي بعد ذلك إسخوبوليس المهذّمة، يليها الخليج الذي تقع فيه كيراسونت وهيرموناسا، وهما مستوطنتان لا أهمية لهما؛ وغير بعيد عن هيرموناسا تقع ترابيزونت ثمّ كولبيدا. وفي مكان ما هنا تقع قرية تدعى زيغوبوليس. وأنا كنت قد تحدّثت عن كولبيدا والساحل الواقع فوقها⁽³⁰⁾.

18- إلى الأعلى من ترابيزونت وفارناكيا ينتشر التيباريين، والكالديون، والسانيون الذين كانوا من قبل يدعون ماكرونيين؛ وتقع أرمينيا الصغرى؛ وفي مكان ما على مقربة من هذه الأماكن يقطن الأبيتيون الذين كانوا يدعون من قبل كيركيتيين. ويخترق هذه المناطق جبل صخري شديد الوعورة، هو جبل سكيديس الذي يتّصل بالجبال الموسخية الواقعة إلى الأعلى من كولبيدا (يشغل الهيبثاكوميتيون قممها)، وجبل باريادرس الذي يمتدّ من منطقة سيدينا وثيميسكيرا، حتّى أرمينيا الصغرى ليشكّل الجانب الشرقي من البونتس. وسكّان هذه المناطق كلّهم متوحّشون تماماً، لكنّ الهيبثاكوميتيين يتفوّقون على ما عداهم في هذا الميدان. بل إنّ بعضهم

يعيش فوق الأشجار أو في أبراج، ولذلك دعاهم القدماء بالموسينكيين، لأن هذه الأبراج كانت تدعى «موسينكي». ويستهلك هؤلاء في غذائهم لحوم الوحوش وثمار الشجر؛ ويهاجمون المارة وعابري السبيل، فيقفزون عليهم مباشرة من أكواخهم المبنية فوق الأشجار. وقد أباد الهيتاكوميتيون ثلاثاً من مانبولات⁽³¹⁾ قوآت بوميوس حينما كانت هذه تعبر هذه المنطقة الجبلية؛ فعلى الطرقات كان البرابرة يحضرون أواني مليئة بالعلس المسكر الذي كانوا يستخرجونه من غصون الأشجار. وبعد ذلك يهاجمون الجنود الرومان الثملين بالعلس حتى درجة فقدان الوعي، فيقتلونهم من غير عناء. وقد دُعي بعض هؤلاء البرابرة بالبليزيريين.

19- لقد كان الكالديون المعاصرون يدعون قديماً هاليبيين. وفي مقابل منطقتهم تماماً تقع فارناكيا التي تنتفع من البحر بصيد وافر من البلاميدا (فقد بدأ صيد هذه الأسماك لأول مرة هنا)⁽³²⁾، ومن البر بالمناجم، مناجم الحديد الآن، لكنّها كانت مناجم فضة من قبل. والساحل في هذه المنطقة، هو على وجه العموم ساحل ضيق؛ ففوقه على وجه التحديد ترتفع جبال فيها كثير من المناجم، وتغطيها غابات كثيفة، ولا تزرع هنا سوى مساحة صغيرة من الأرض. وعلى هذا النحو لا يبقى لعمال المناجم أي مصدر عيش آخر سوى العمل في المناجم، كما لا يبقى للعاملين في المهن البحرية سوى العمل في صيد الأسماك، خاصة البلاميدا والدلافين. فهذه الأخيرة تطارد أسراب أسماك الكورديلا، والتتة، والبلاميدا⁽³³⁾، فتغدو سمينة جداً، ولأنها سريعة في مطاربتها للطعم، فإنها تقترب من الشاطئ ويغدو صيدها سهلاً. ولا يصيد الدلافين بالطعم سوى سكان فارناكيا، فيقطعونها إلى أجزاء ويستخدمون دهنها لأغراض كثيرة.

20- وأنا أظن أن هؤلاء الخاليبيين، هم الذين يذكرهم هوميروس في «سجل السفن»، بعد البافلاغونيين، باسم الغاليزونيين:

جحافل الغاليزونيين التي قادها غوديوس وإيبستروث من ألبيا،

بلدان البعيدين، التي لا تنضب فيها مناجم الفضة؛

(إلياذة II، 856)

أو، إذا كان النص قد تغير من

...الخاليبيين، بلاد البعيدين،

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

أو أن هؤلاء القوم كانوا يدعون في الأزمنة السابقة «أليبيين» بدلاً من «خاليبيين». فكما هي الحال اليوم، إذ لا يصحّ أن ندعوهم «كالديين» كاسم مشتقّ من «خاليبيين»، كذلك كانت الحال فيما مضى إذ لم يكن يصحّ أن يدعوا «خاليبيين» بدلاً من «أليبيين»، لاسيما أن أسماء الأقاليم، خاصة لدى البرابرة، كانت تتغيّر تغيّراً كبيراً. فعلى سبيل المثال كان بعض التراقيين يدعون سينتتين، ثمّ سايسيين، حيث قال أرخيلوخ إنه رمى ترسه:

يحمل السياسيّ اليوم ترسي النقي فخوراً:

قدّر لي أن أرميه في الأدغال رغماً عنيّ

(مقطع 6، بيرغك)

ويدعى هؤلاء القوم أنفسهم الآن بالسابين. وقد عاش هؤلاء كلهم قرب أبديرا وعلى الجزر المحيطة بليمنوس. ويأتي بعد ذلك البريفيون، والبريفي، والفريجيون، وهؤلاء كلهم شعب واحد؛ ومثلهم الميسيون، والميسنيون، والميونيون. ونحن لا نرى ضرورة إلى مزيد من الأمثلة. ويرى ديميثري السكيبيسي أيضاً إن اسم هؤلاء قد تحوّل من أليبيين إلى خاليبيين؛ ولكن بما أنه لا يعرف ما يترتب عن هذا وما يوافقه، خاصة ما الذي دعا هوميروس ليمسّي الخاليبيين بالغاليزونيين، لذلك يرفض قبول هذا الرأي. وأنا من جانبي، بعد أن قارنت بين اعتباراتي واعتباراته، أمحصّ في مزاعم الكتاب الآخرين.

21- فبعض الكتاب يكتبون بعد أن حرّفوا نصّ هوميروس، «ألألزونيين» وبعضهم الآخر يكتب «أمازونيس»، أمّا قوله «من أليبا»، فيغيّرونه إلى «من ألوبا»، ويدعون السكيبثيين الذين يسكنون على البوريسفين، «ألألزونيين» و«كاليبيديين» أو بأسماء أخرى (هرف لنا بها هيلانيكوس، وهيرودوت، وإيفدوكس)، ويوضّعون الأمازونيس بين ميسيا وكاريا وليديا كما يظنّ إيثور أيضاً، على مقربة من كيما، موطنه. ولعل في هذا مغزى: فإيثور يقصد إلى البلاد التي سيقطنها الإوليون والإيونيون فيما بعد وكانت الأمازونيس قد قطنها في أوّل الأمر. ويقال، إن هناك عدداً من المدن التي حملت أسماء الأمازونيس: إفسس، وسميرنا، وكيما، وميدينا. ولكن كيف يمكن أن توضع أليبا في هذا المكان، أو «ألوبا» كما يدعوها بعضهم؟ أو كيف ينبغي أن نفسّر تعبير «بلدان البعيدين» أو «لا تتضب فيها مناجم الفضة»؟

22- يتجاوز إيثور هذه الصعوبات بإحداث التغيير الآتي في النص، فيكتب:

جحافل الأمازونيس قادها غوديوس وإيبسترون من ألوبا

منطلقاً من البلاد التي منها قبيلة الأمازونيس

لكنّه ما إن تجاوز هذه العقبة حتّى واجهه اختلاف آخر، لأنك لن تعثر في هذه المنطقة على أيّ ألوبا، أمّا قراءة هذه الكلمة فقد تبدّلت بشكل يتعارض مع معطيات المخطوطات القديمة إلى درجة التهور. ويبدو أن ديميتري السكيبسي سيستهجن زعم إيثور ولا يوافق الرأي أولئك الذين يظنّون أن الأليزونيين كانوا يقطنون حول بالينا؛ وأنا كنت قد ذكّرت بهم عندما عرضت وصفي لمقدونيا⁽³⁴⁾. كما يصعب عليه أيضاً أن يقبل القول، إن تحالف قوات الرحل الذين كانوا يعيشون على البوريسفين، قد جاء لنصرة الطرواديين. ولكنّ ديميتري يستحسن من جهة أخرى رأي هيكاتوس الميلتوسي ومينيكراتوس الإيليّ تلميذي كسينوقراط، وكذلك رؤية باليئاتوس. ففي «وصف الأرض» يقول هيكاتوس: «يجري أودريس عند مدينة ألابيا من الغرب عبر سهل ميغدونيا، إذ ينبع من بحيرة داسكيليتيدا ويصبّ في رينداك». وبحسب قوله إن ألابيا خالية من السكّان الآن، لكنّ الألابيون يعيشون في كثرة من القرى التي يجري أودريس عبرها؛ ويحظى أبوللون في هذه القرى بتبجيل خاص، خاصة في المنطقة الحدودية مع الكيزيكيين. وينقل مينيكراتوس في «وصف الهللسبونت» شيئاً مغايراً تماماً، إذ يقول: إن سلسلة جبلية متصلة من غير انقطاع تعلو فوق منطقة ميرلييا حيث تقطن قبيلة الغاليزونيين. ثمّ يضيف قائلاً: لكنّ اسمهم يجب أن يكتب بلامين، بيد أن هوميروس يكتبه بلام واحدة. وأخيراً يزعم باليئاتوس أن أوديوس وإيبسترون انطلقا في حملتهما من منطقة الأمازونيس اللواتي كنّ يقطنن في ألوبا، والآن في زيليا. ولكن ما الذي يستحقّ الاستحسان في آراء هؤلاء الناس؟ ما عدا أن هؤلاء الكتّاب يحوِّرون القراءة القديمة، فإنهم لا يدلوّننا على مناجم الفضّة، ولا على موقع ألوبا في ميرليياتيدا، ولا كيف أضحى أولئك الذين جاؤوا من هناك إلى إيليون، «من بلاد البعيدين»، حتّى إذا ما سلّمنا بوجود ألوباما، أو ألابيا. فهذان المكانان أقرب إلى طروادا أكثر بكثير من أطراف إفسس. ومع ذلك يدعو ديميتري أولئك الذين يوضّعون الأمازونيس عند بيغيلاس بين إفسس ومغنيسيا وبرينا، بالثرثارين الفارغين. وهو يضيف قائلاً، إن تعبير «من بلاد البعيدين» لا يجوز أن يستخدم عند الحديث عن هذا المكان. فإلى أيّ حدّ لا ينطبق هذا التعبير على منطقيّ ميسيا وتيثرانيا؟

23- يقول ديميتري، أقسم بزيوس أنه ينبغي أن تقرّ بوجود بعض الإضافات الكيفية على نصّ هوميروس. مثلاً:

بعيداً عن أسكانيا

(الإلياذة II، 863)

... اشتهر باسم أرينون (هكذا دعتة أمه)

(الأوديسا XVIII، 5)

بيدها الريلة قليلاً، أخذت بنيلوبي المفتاح النحاسي المشني بمهارة.

(الأوديسا XXI، 6)

ولنسلّم بهذا أيضاً. ولكن لا يجوز أن نقبل بما قبل به ديميتري من غير اعتراض مقنع على أولئك الذين يقرّون قراءة التعبير على النحو الآتي:

بعيداً عن خاليبا

ومع أن ديميتري يوافق على أن يقرّ بأنه إذا لم يكن في بلاد الخالبيين مناجم فضة الآن، فإن هذا لا يعني أنها لم تكن موجودة قديماً، إلا أنه يرفض الإقرار بأنه كانت لها الشهرة، وأنها تستحق أن يشار إليها كما يشار إلى مناجم الحديد. ونحن نسأل ديميتري، ما الذي يمنع هذه المناجم أن تكون معروفة وذائعة الصيت كما مناجم الحديد؟ وهل وفرة الحديد تجعل المكان ذائع الصيت، ووفرة الفضة لا تجعله كذلك، وإذا لم تكن مناجم الفضة قد نالت شهرتها في الزمن البطولي، بل في زمن هوميروس، فهل يجوز أن يلام تعبير الشاعر على ذلك؟ وكيف كان يمكن أن ينتهي هذا المجد إلى الشاعر؟ كيف كان يمكن أن تنتهي إليه شهرة مناجم النحاس في تيميسا الإيطالية، أو شهرة ثراء طيبة المصرية⁽³⁵⁾، مع أنه عاش بعيداً عن طيبة المصرية مسافة تساوي ضعف المسافة التي كانت تفصله عن الكالدين؟ لكنّ ديميتري لا يتفق حتى مع الكتاب الذين يتبنّى آراءهم. فلدى وصفه للمكان المحيط بسكيبيسيس، مسقط رأسه، يتحدث عن قرية نيا، وأرغيريا، وألازونيا بصفتها مواقع قريبة من سكيبيسيس ونهر إيسيب. وإذا كان لهذه الأماكن وجود فعلي، فإنها يجب أن تكون عند منابع إيسيب. وبحسب هيكاتوس إنها تقع وراء مصبّ النهر، أمّا باليئاتوس الذي يزعم أن الأمازونيس كنّ يعشن من قبل في ألوبا، والآن في زيليا، فلا يقول شيئاً يشبه

ما يقوله هؤلاء الكتاب. وفيما يخصّ مينيكراتوس، فإنه بدوره لا يقول شيئاً عمّا هو وراء ألبا؛ وحتىّ ديميتري نفسه لا يقول شيئاً [عن هذا].

24- وأنا كنت قد دفعت بكثير من الاعتراضات على أبوللودوروس الذي عالج هذا الموضوع في «التشكيل القتالي لدى الطرواديين»، وينبغي عليّ أن أعارضه الآن أيضاً. فهو يظنّ أنه ينبغي ألاّ يوضّع الأليزونيون وراء نهر هاليس. ويقول في هذا السياق، إن أيّ تحالف قوّات لم يأت من الجانب الآخر لهاليس لمساعدة الطرواديين. وعليه فإننا نسأله قبل كلّ شيء، من هؤلاء الغاليزونيون على هذا الجانب من هاليس، [وأولئك الذين]

... بعيداً عن ألبا، حيث لا تنضب مناجم الفضة.

لكنّه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال. ومن ثمّ طرح عليه سؤالاً آخر: ما هو السبب الذي يجعله لا يبيح قدوم أيّ تحالف قوّات من منطقة ما وراء النهر؟ وإذا كان الحلفاء الآخرون كلهم، ما عدا التراقيين، قد عاشوا فعلاً على هذا الجانب من النهر، فإن ذلك لم يكن ليشكل عقبة أمام قدوم قوات تحالف واحد من الجانب الآخر لهاليس، من البلاد الواقعة وراء اللوكو-سوريين⁽³⁶⁾. ترى لماذا كان بإمكان الأقوام الذين يحاربون الطرواديين أن يأتوا من هذه المناطق أو من الجانب الآخر للنهر، كما فعلت الأمازونييس، وفعل الترييون والكيميرون على حدّ قولهم، ولم يكن بإمكان حلفاء الطرواديين أن يفعلوا ذلك؟ فالأمازونيس لم يقدّم العون للطرواديين، لأنّ بريام كان قد حاربهن متحالفاً مع الفريجيين:

يوم جاءت الأمازونيس، ندّت الرجال

(الإلياذة III، 189)

وعلى حدّ قول بريام:

كنت هناك أنا أيضاً، وكنت أعدّ من حلفائهم.

وبما أنّ القبائل المتاخمة للأمازونيس لم تكن تقطن بعيداً لكي يكون من الصعب استدعاؤها، وفي حال عدم وجود أسباب للعداء، فإنني على العكس، أرى أنه لم يكن ثمة ما يمنعها من التحالف مع الطرواديين.

25- ولكنّ أبوللودوروس لا يستطيع أن ينسب مثل هذا الرأي للكتاب القدماء، زاعماً أنّ جميعهم متفق على أن أيّ قبيلة من قبائل الجانب الآخر لهاليس لم تشارك في

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

حرب طروادا. بيد أن واقع الأمر على الضدّ من هذا تماماً، إذ يمكن العثور على قرائن لصالح الرؤية المغايرة. وعلى أيّ حال فإنّ الإينيتيين، الذين بحسب مياندرس، جاؤوا من بلاد اللوكو-سوريين، قد حاربوا إلى جانب الطرواديين؛ وأبحروا من هناك مع التراقيين واستوطنوا أقصى أطراف الخليج الأدرياتيكي؛ أمّا أولئك الإينيتيون الذين لم يشاركوا في الحملة، فقد تحوّلوا إلى قبدوقيين. ويخيّل لي أن ما يدعم صحّة هذا الزعم من قرائن هو أنه في شطر قبدوقيا القريب من نهر هاليس والذي يمتدّ على طول بافلاغونيا ثمة في اللغتين الشائعتين هناك كثير من الأسماء البافلاغونية مثل: باغاس، وبياساس، وأينياتيس، وراتوتيس، وزاردكيس، وتيببوس، وهاسيس، وأوليغاسيس، ومانيس. فهذه الأسماء شائعة في فازيمونيتيدا⁽³⁷⁾، وبيموليسيتيدا⁽³⁸⁾، وغازيلونيتيدا، وغازاكينا، وفي أكثر المناطق الأخرى. ويسوق أبوللودوروس نفسه قراءة زينودوت لبيت الشعر الهوميروسي على النحو الآتي:

الذي خرج بهم من إينيتا⁽³⁹⁾، حيث تسرح البغال البرية.

(الإلياذة II، 852)

وهو يزعم أنّ هيكاتوس الميلتوسي ظنّ هذه الإينيتا أميس. ولكنّ أميس تقع كما ذكرت سابقاً⁽⁴⁰⁾، في منطقة اللوكو-سوريين وعلى ذلك الجانب من هاليس.

26- ويقول أبوللودوروس في مكان ما، إن هوميروس حصل على معلومات عن البافلاغونيين الذين يقطنون في أعماق البلاد من أناس عبروا هذه البلاد سيرا على الأقدام؛ ولكنّ ساحل بافلاغونيا بقي مجهولاً بالنسبة للشاعر، مثله في ذلك مثل باقي ساحل البونتس وإلا لكان أشار إليه. لكنّ الأمر على النقيض من هذا إذا انطلقنا من الوصف الذي قدّمته هنا، إذ يمكن أن نؤكد العكس: لقد اجتاز هوميروس الساحل كله، ولم يترك منه أي قسم كان يستحق الذكر عندئذٍ. وإذا كان لم يذكر هيراقليا، وأماستريا، وسينوبس، فذلك لأنّ هذه المدن لم تكن قد ظهرت بعد؛ ومن جهة أخرى، ليس ثمة ما هو غريب أيضاً في عدم ذكره للقسم الداخلي من البلاد. وعلى وجه العموم فإنّ عدم ذكر كثير من الأماكن المعروفة لا يعدّ دليلاً على الجهل بها، وهذا ما كنت قد بيّنته من قبل⁽⁴¹⁾. وفي غضون ذلك يقول أبوللودوروس، إنّ هوميروس لم يكن على علم بكثير مما كان وجوده على البونتس معروفاً، كالأنهار والقبائل مثلاً، وإلا لكان قد ذكرها، كما يؤكد أبوللودوروس. ويمكن الإقرار

بعدم معرفة هوميروس هذه بما هو شديد الأهمية، كالسكيثيين، وميوتيدا، وإيستر. وفي حال العكس لما كافأ الرجل بتلك السمات المميّزة مثل «الذين يقتاتون بالحليب»، و«الذين يفتقرون إلى وسائل العيش». و«الأعدل بين الناس»، و«الذين يحلبون المهرات»⁽⁴²⁾. بيد أنه لم يكن باستطاعته أن يتجاوز أسماء «السكيثيين»، و«السامثيين»، أو «الساغروماثيين» إذا كان الإغريق قد دعوهم بهذه الأسماء فعلاً؛ وفي حديثه بعد ذلك عن التراقيين والميسيسيين القاطنين على إيستر، لم يكن ليصمت عن ذكر هذا النهر الأعظم بين الأنهار، خاصة أنه كان يميل دائماً إلى تحديد حدود الأماكن بالأنهار. وأخيراً لم يكن ليغفل في حديثه عن الكيميريين ذكر البسبور وميوتيدا.

27- ولكن من ذا الذي يمكن أن يلوم هوميروس لأنه يذكر الأشياء من غير أن يبرز سماتها الهامة في غير روح عصره أو بما لا يتفق ومحتوى مؤلفاته؟ مثلاً، عدم ذكره لنهر تانايس المعروف بشيء واحد فقط، هو أنه يشكل الحدّ الفاصل بين آسيا وأوروبا؟ لكنّ الناس لم يكونوا قد بدؤوا يستخدمون عندئذٍ اسم آسيا ولا اسم أوروبا، كما لم تكن المعمورة قد انقسمت بعد إلى ثلاث قارّات كما هي الآن؛ وإلاً لكان هوميروس قد ذكرها بأسمائها بحكم السمة التي تميّز بها أجزاء العالم هذه، كما هي الحال مع ليبيا، والريح الليبية التي تهبّ من الأجزاء الغربية لليبيا. ولكن بما أن تقسيم المعمورة إلى قارّات لم يكن قد حصل بعد، لذلك لم تكن هناك ضرورة لذكر تانايس. وهناك كثير مما يستحقّ الذكر بحدّ ذاته، لم يرد بفعل المصادفة البحتة إلى ذهن الشاعر. فنحن نلاحظ في أحاديثنا وسلوكنا كثيراً مما هو عرضي. ويتّضح من هذه الوقائع كلّها، أنّ كلّ من يرى في صمت الشّاعر عن شيء ما جهلاً به، فهو مخطئ. وسوف أوضح بعدد من الأمثلة خطأ مثل هذه الأدلّة، لأنّ كثيرين يستخدمونها في غالب الأحيان. ولذلك ينبغي دحض أولئك الذين يوردونها حتّى لو كان في هذا خطر الوقوع في التكرار⁽⁴³⁾. فإذا ما زعم أحدهم على سبيل المثال، إن هوميروس لم يذكر هذا النهر أو ذلك لأنه لا يعرف [اسمه]، فإنني أصف مثل هذا الدليل بالدليل الغبي؛ فهوميروس لم يذكر حتّى نهر ميلتوس الذي يجري قرب سميرنا (التي يرى أكثر الكتاب أنها موطنه)، مع أنه يذكر في الوقت نفسه اسميّ نهر جيرم، ونهر هيللوس؛ كما لم يذكر الشّاعر أيضاً نهر باكتول الذي يلتقي في مجرى واحد مع هذين النهرين، وينبع من جبل تمولوس الذي يذكره الشّاعر⁽⁴⁴⁾. ولم يأت

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

هوميروس على ذكر سميرنا نفسها، ولا على ذكر المدن الإيونية الأخرى، ولا على ذكر أكثر المدن الإيولية، مع أنه يذكر ميلتوس، وساموس، ولسبوس وتينيدوس؛ ولم يذكر كذلك نهر ليثوس الذي يجري على مقربة من مغنيسيا؛ ويصّب هذان النهران كلاهما في مياندرس الذي يذكره الشاعر، إضافة إلى:

ريوسوس، وكاريسوس، وهيبتابوراس،

وروديوس ذو الأمواج السريعة

(الإلياذة XII، 20)

وسوى ذلك من الأنهار التي ليست أكثر من جداول. وإذ يذكر الشاعر كثرة من البلدان والمدن، فإنه يذكر في الآن عينه بالأنهار والجبال، أو لا يأتي على ذكرها. وهو على أي حال لا يأتي على ذكر الأنهار في إيثوليا وأتيكا وبعض البلدان الأخرى. عدّك عن هذا أنّه حينما يذكر الأنهار البعيدة، لا يأتي على ذكر القريبة، لا لأنه لا يعرفها، بل لأنها كانت معروفة للأخرين كلّهم. وعلى النحو نفسه كان الشاعر يعرف القبائل التي كانت تقطن على مقربة، لكنّه يذكر بعضها ويصمت عن ذكر بعضها الآخر. فهو يذكر الليكيين السوليميين مثلاً، لكنّه لا يذكر الميليين والبامفيليين والبيسيديين؛ كما يذكر البافلاغونيين، والفريجيين، والميسيسيين، ولا يذكر الماريانديين، والفينيين، والبيثينيين، والبيبريكيين؛ ويذكر الأمازونيس، لكنّه لا يأتي على ذكر اللوكو-سوريين، والسوريين، والقبدوقيين، والليكاونيين، مع أنه يروي الكثير عن الفينيقيين، والمصريين، والأثيوبيين. وإذ يتحدث عن سهل أليوس وعن الأريميمين⁽⁴⁵⁾، فإنه يصمت عن القبيلة التي ينتمي إليها هؤلاء. وليس توجيه مثل هذا الانتقاد إلى هوميروس صحيحاً؛ فالانتقاد يكون صحيحاً عندما يكشف عن زعم ما مزيّف زعمه الشاعر. وقد تبين أنّ أبوللودوروس لم يكن على حق حتّى حينما تجرّأ على أن يزعم، أنّ «الذين يحلبون المهرات» و«الذين يقاتلون بالحليب»، هم اختلاق الشاعر. وهذه هي ردودي على أبوللودوروس. أمّا الآن فإنني أعود إلى الجزء التالي من وصفي للبونتس.

28- يقطن فوق منطقة فارناكيا وترابيزونت، التيبارينيون، والكالديون، الذين تصل حدود انتشارهم إلى أرمينيا الصغرى. وهذه البلاد الأخيرة بلاد خصيبة. وأرمينيا الصغرى، مثلها مثل سوفينا، كان يحكمها دائماً حكام محليون كانوا

ينسجون علاقات ودّ مع باقي الأرمن تارة، ويخضعون لسلطانهم تارة أخرى. وقد خضع لهم الكالديون والتيباريون، أي أنّ حدود دولتهم كانت تمتدّ حتّى ترابيزونت وفارناكيا. وبعد أنّ رسّخ ميتريدات إيفباتور أركان جبروته، أضحى سيّد كولبيدا وهذه البلدان كلّها التي أخلاها له أنتياتور بن سيسيدس. وقد أولى ميتريدات عناية كبيرة لهذه المناطق، فبنى فيها 75 حصناً خزن فيه الجزء الأعظم من كنوزه. وأهمّ هذه الحصون حصن غيدارا، وحصن باسغيداريزا، وحصن سينوريا. ويقع هذا الحصن الأخير على الحدود مع أرمينيا الكبرى مباشرة، ولذلك بدّل ثيوفانوس اسمه إلى سيونوريا⁽⁴⁶⁾. والحقيقة أنّ في كلّ مكان من سلسلة جبال باريادرس مواقع ملائمة لبناء مثل هذه الحصون، لأنّ في المنطقة وفرة من المياه والأخشاب وتنتشر الانهدامات والمنحدرات الشاقولية في أماكن كثيرة منها. وعلى أيّ حال فإن أكثر الخزائن المحصّنة بنيت هنا. وفي نهاية المطاف فإن ميتريدات نفسه لجأ إلى أطراف المملكة البونتيّة هذه عندما هاجم بومبيوس بلادده. فاستولى في أكليسينا قرب داستيرا على جبل فيه وفرة من المياه (كما كان الفرات يجري على مقربة منه، ويفصل بين أكليسينا وأرمينيا الصغرى)، وبقي ميتريدات مقيماً هناك إلى أن أرغمه الحصار على أن يهرب عبر الجبال إلى كولبيدا ومنها إلى البسبور. وفي حوالي هذا الوقت أسّس بومبيوس في أرمينيا الصغرى مدينة نيكوبوليس⁽⁴⁷⁾ التي لا تزال عامرة حتّى يومنا هذا.

29- ووفق مشيئة الرومان كان يحكم أرمينيا الصغرى مختلف الحكّام في

أزمنة مختلفة؛ ومؤخراً كان يحكمها أرخيلايوس؛ أمّا التيباريين، والكالديون حتّى كولبيدا وفارناكيا وترابيزونت فقد كانوا تحت حكم بيثودوريدس، وهي امرأة حكيمة ومؤهلة لقيادة شؤون الدولة. وبيثودوريدس هي ابنة بيثودوريس الترابلي. ولما تزوّجت من بوليمون شاركته إدارة شؤون الدولة لبعض الوقت؛ وبعد وفاة زوجها⁽⁴⁸⁾ في بلاد الذين يدعون أسبورجيانيين (وهم إحدى القبائل البربرية التي تقطن عند سينديكا)، ورثت عرشه. وكانت قد أنجبت منه ولدين وبناتاً. وقد تزوّجت هذه الأخيرة من كوتيس السبيسي⁽⁴⁹⁾؛ وبعد أن راح كوتيس ضحية مؤامرة غادرة⁽⁵⁰⁾، عاشت زوجته أرملة مع أبنائها منه. ويحكم ابنها الأكبر البلاد الآن⁽⁵¹⁾. أمّا أبناء بيثودوريدس، فإن أحدهم⁽⁵²⁾ يعاون والدته في إدارة شؤون البلاد بصفته شخصية خاصة، بينما توجّ الآخر⁽⁵³⁾ منذ بعض الوقت ملكاً على أرمينيا الكبرى. وتزوّجت بيثودوريوس من أرخيلايوس وعاشت معه حتّى وفاته⁽⁵⁴⁾. وهي الآن أرملة تملك المناطق

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

المشار إليها، إضافة إلى مناطق أخرى أكثر خصوبة وغنى بالمحاصيل، وهأنذا أبدأ وصفها الآن.

30- تتاخم فارناكيا كل من سيدينا وثيميسكيرا، وإلى الأعلى من هذه الأماكن تقع فاناريا التي تشغل الشطر الأفضل من البونتس. وهي مزروعة بشجر الزيتون وغنية بالنبيذ، وتتميز بكثير من الميزات الأخرى. ويحتمي فاناريا من جهة الشرق جبل باريادرس الذي يمتد بموازاتها؛ ويطوقها من الغرب جبل ليفر وجبل أوفليم. وهي واد طويل وشاسع يجري عبره نهر ليك الذي ينبع من أرمينيا، ونهر إريدا الذي ينبع من ثغر عند أماسيا. ويلتقي هذان النهران في مجرى واحد في نقطة تقع في وسط هذا الوادي تقريباً. وعند نقطة التقائهما هذه تقع مدينة دعاها مؤسسها الأول⁽⁵⁵⁾ باسمه: إيفاتوريا. أما بومبيوس فعندما رأى أن نصف المدينة مبني فقط مد حدودها، وضاعف أعداد ساكنيها، ودعاها مغنوبوليس. وتقع هذه المدينة وسط سهل، أما كبيراً فإنها تقع عند سفح باريادرس مباشرة، على بعد 150 مرحلة إلى الجنوب من مغنوبوليس (وعلى البعد نفسه تقع أماسيا إلى الجنوب منها). وبني في كبيراً قصر ميتريدات، وطاحونة مائية، ومعرض وحوش؛ كما تقع على مقربة منها غابات الصيد، ومناجم.

31- وعلى بعد أقل من 200 مرحلة عن كبيراً يقع الحصن المسمى كينون هوريون⁽⁵⁶⁾، وهو عبارة عن صخرة شاقولية حصنتها الطبيعية نفسها. ويتدفق في أعلى هذه الصخرة ينبوع ماء غزير، وعند سفحها نهر وهاوية سحيقة. وارتفاع هذه الصخرة عند قممها عظيم جداً، ولذلك فهي عصية لا يمكن ارتقاؤها؛ زد إلى هذا أنها محاطة بسور مدهش، ما عدا الشطر الذي هدمه الرومان. وتحيط بهذه البلاد كلها غابات كثيفة، ولكن محيطها هذا صخري وخال من الماء، ولا يمكن إقامة معسكر هنا على مسافة 120 مرحلة. وهنا في هذا الحصن خزن ميتريدات كنوزه النفيسة التي قدمها بومبيوس هدية للكابيتول، ولا تزال محفوظة هناك حتى اليوم. وتحكم بيثودوريدس كل هذه البلاد التي تتاخم إقليم البرابرة الخاضع لسلطتها أيضاً، مثله في هذا كمثل زيليتيدا وميغابوليتيدا. أما كبيراً التي حولها بومبيوس إلى مدينة دعاها ديوسبوليس⁽⁵⁷⁾، فقد زينتها بيثودوريدس حتى جعلتها أكثر بهاء وغيّرت اسمها إلى سييستا⁽⁵⁸⁾؛ ثم اتخذتها عاصمة لمملكته. ويقوم في هذه المدينة معبد مين الذي دعوه بالفارناكي⁽⁵⁹⁾، وفيها أيضاً المكان الذي يدعى أميريا، وفيه كثرة من العبيد المعبدين وأرض مقدسة وارداتها للكاهن دائماً. وكان الملوك يجلسون هذا المعبد

تجيبلاً فاق كلّ معيار، ففيه يؤدّون ما سمّي باليمين الملكية: [أقسم] «بهناء الملك ومين الفارناكي». ويعدّ هذا المعبد معبد سيلينا، وكما المعابد عند الألبان وفي فريجيا، فإن معبد مين على وجه الخصوص يقع في منطقة تحمل الاسم نفسه، ومعبد مين الإسكي⁽⁶⁰⁾ على مقربة من أنطاكيا البيسيدية، وكذلك معبد مين الذي في منطقة الأنطاكيين.

32- وإلى الأعلى من فاناريا تقع كوماننا على البونتس، وهي سمّية مدينة في قبدوقيا الكبرى؛ والمدينة مكرّسة للإلهة نفسها، ومبنية وفق النمط القبدوقي: الطقوس المقدّسة، والولع بالإله، واحترام الكهنة كانت هي نفسها تقريباً هناك، خاصة في عهود الملوك السابقين، عندما كان الكاهن يحمل التاج لدى ما كان يدعى «ظهور»⁽⁶¹⁾ الإلهة مرتين في العام⁽⁶²⁾، فيشغل بذلك المكانة الثانية بعد الملك.

33- لقد أشرت سابقاً⁽⁶³⁾ إلى دوريلايوس التكتيكيّ الذي كان جدّ والدتي، كما أشرت إلى دوريلايوس آخر، هو حفيد الأوّل وابن فيليطروس؛ وعلى الرغم من أنّ هذا الدوريلايوس نال من ميتريدات إيفباتور أرفع الأوسمة، بل نال أيضاً منصباً كهنوتياً في كوماننا، إلاّ أنه تورّط في محاولة تحريض المملكة على العصيان دعماً للرومان. وبعد سقوط دوريلايوس أقامت عائلته معه في المنفى. وبعد زمن طويل، عاد عمّ والدتي موثيرنوس ليشغل من جديد مكانة مرموقة، بينما كانت المملكة قد بدأت تسير نحو السقوط، فقاسم الملك مصيره مرّة أخرى ومعه أقاربه، باستثناء بعضهم الذين كانوا قد انفصلوا عن الملك قبل ذلك فنجوا بأرواحهم، ومنهم على سبيل المثال جدّي من جهة أمّي. فعندما رأى هذا الأخير أنّ سير حرب ميتريدات ضدّ لوكولاً يتخذ منحى سيئاً، إضافة إلى برود موقفه تجاه الملك بعد أن قتل هذا الأخير ابن عم جدّي تيببوس وابنه ثيوفيل، أخذ يتأّر لهما ولنفسه من الملك. فبعد أن تلقّى مباركة لوكولاً، نجح في أن يستميل 15 حصناً للانفصال عن الملك. والحقيقة أنهم وعدوه بالكثير لقاء هذه الخدمات. ولكن عندما وصل بومبيوس وحلّ محلّ لوكولاً في قيادة الجيوش، عدّ كلّ من قدّم خدمة لسلفه عدوّاً شخصياً له، لأنّ العداء بينه وبين لوكولاً كان قد بلغ أقصى مداه. ولما عاد بومبيوس إلى روما نجح في أن يستصدر قراراً من السينات بعدم إقرار الامتيازات التي وعد بها لوكولاً بعض البونتيين؛ فعلى حدّ قوله إنه ليس من العدل أن يمنح المكافآت والامتيازات قائد عسكري فاشل، بينما جاء النصر على يد قائد آخر غيره.

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

34- لقد أديرت شؤون كوماننا في عهود الملوك على النحو الذي سبق الحديث عنه. ولكن بومبيوس الذي مُنح سلطات مطلقة على البلاد، عين أرخيلايوس كاهناً، وألحق بأملكه، إضافة إلى الأرض المقدّسة قطعة أرض أخرى امتداد محيطها سخينان (أي 60 مرحلة) وأمر السكّان بالخضوع له. فكان أرخيلايوس حاكماً عليهم، وسيّداً للعبيد المعبدين الذين كانوا يقيمون في المدينة، بيد أنه لم يكن من حقه بيعهم. وهنا أيضاً⁽⁶⁴⁾، لم يكن عدد العبيد أقلّ من 6000 عبد. وكان أرخيلايوس هو ابن أرخيلايوس الذي كان سولاً والسينات قد منحه أوسمة الشرف، كما كان «صديق» القنصل السابق غابينوس. وعندما أُرسل غابينوس إلى سوريا⁽⁶⁵⁾، جاء أرخيلايوس إلى هنا أيضاً آملاً المشاركة في الإعداد للحرب البارثية، ولكن بما أنّ السينات لم يسمح له بذلك، فقد صرف النظر عن الأمر كلّه، لكنّه عثر على أمل آخر أعظم. ففي ذلك الوقت حدث أن طرد المصريون بطليموس والد كليوباترا، واستولت على مقاليد الأمور في المملكة ابنته الكبرى أخت كليوباترا. وبما أنهم كانوا يبحثون لها عن زوج من عائلة ملكية، فقد عرض أرخيلايوس على وسطائها أن يكون هو الزوج المنشود، زاعماً أنه ابن ميتريدات إيفاتور. وقد قبل عرضه، لكنّه لم يملك سوى 6 أشهر؛ فقد قتله غابينوس عندما أعاد بطليموس إلى العرش.

35- ونال ابنه منصباً كهوتياً، وفيما بعد صار إلى ليكوميد الذي أضافوا إلى الأرض التي بين يديه أربعة سخينات أخرى⁽⁶⁶⁾. وبعد أن أزيح هذا أيضاً، شغل هذه الوظيفة ديتيفيت بن أدياتوريج الذي منحه إياها على أغلب الظنّ قيصر أغسطس مكافأة له على بسالته. والحقيقة أن قيصر ساق أدياتوريج وأبناءه وزوجته بين الأسرى في مهرجان النصر، وعزم على إعدامه هو وابنه الأكبر (وكان ديتيفيت هو الابن الأكبر)؛ ولكن عندما قال الابن الثاني للجنود الذين يسوقونهم، إنه هو الابن الأكبر، دار بين الشقيقين جدال طويل، إلى أن أقنع الوالد ديتيفيت بالتنازل لأخيه لأنه على حدّ قولهم، بصفته الأكبر سنّاً سوف يكون أكثر قدرة على حماية والدته وأخيه الذي سيبقى على قيد الحياة. وعلى هذا النحو، كما يقال، أعدموا الأصغر مع والده ونجا الأكبر الذي نال هذا المنصب التشريفي. وبعد أن عرف قيصر بما جرى، ولكن بعد أن تمّ الإعدام، حزن كثيراً وعدّ الذين بقوا على قيد الحياة ممن يستحقّون عطفه ورعايته، فمنحهم هذه الوظيفة التشريفية.

36- وكوماننا مدينة عدد سكّانها كبير، وهي مركز تجاري مهمّ بالنسبة

لتجار أرمينيا. وفي أثناء «ظهور»⁽⁶⁷⁾ الإلهة يتدفق الناس إلى هنا رجالاً ونساءً من كل مكان، من المدن والأرياف للاحتفال بالعيد. بل ثمة من يقيم هنا إقامة دائمة بمقتضى نذر نذره، ويقدم الأضاحي للإلهة. ويعيش سكان المدينة عيشة بزخ، أما أراضيهم فهي مزروعة كلها بالكرمة. وفي المدينة كثرة من النسوة اللواتي يتاجرن بأجسادهن؛ وأكثرهن مكرسات للإلهة. فهذه المدينة هي بمعنى ما كورينثوس صغيرة. وواقع الأمر، هو أنه بسبب وجود كثير من العاهرات المكرسات لأفروديت، تفتد إلى هنا أعداد كبيرة من الأجانب للاحتفال بالعيد. لقد كان التجار والجنود ينفقون أموالهم كلها هناك حتى ضرب بهم المثل القائل:

ليست طريق كورينثوس متاحة لأي كان.

إذن، ذلك هو وصفي لكومانا.

37- وتقع البلاد المحيطة كلها تحت سلطة بيثودوريدس؛ وتتبع لها أيضاً فاناريا، وزيلتيديا، وميغالوبوليتيديا. وأنا كنت قد تحدثت عن فاناريا. أما زيلتيديا، فإن فيها مدينة زيلا التي بنيت فوق هضبة سميراميس، وفيها معبد أناهيتا التي يعبدها الأرمن أيضاً⁽⁶⁹⁾. وتؤدي الطقوس المقدسة هنا بكثير من الإجلال، ويؤدي البونتيون كلهم هنا اليمين حيال أهم أحداث حياتهم. وكثير من العبيد المعبديين والأوسمة الكهنوتية الشرفية كانت هنا في عهد الملوك، كما وصفتها تماماً؛ وهذا كله بين يدي بيثودوريدس الآن. وقد تسبب كثيرون بالأذى للمعبد، فقلصوا أعداد الذين يخدمون فيه، وسوى ذلك من ثروات المعبد. واقتطعوا من الأراضي المتاخمة له وجعلوها عدة ملكيات: هي على وجه التحديد زيلتيديا (حيث توجد مدينة زيلا التي بنيت على مزلقان. وفي الزمن القديم لم يحكم الملوك زيلا بصفتها مدينة، إنما معبداً للآلهة الفرس، وكان الكاهن هناك سيّداً على كل شيء. لقد كان يعيش في المدينة كثير من الخدم المعبديين، وفيها كان يقيم الكاهن نفسه الذي كان يملك ثروات كبيرة؛ فالأرض المقدسة، ومثلها أرض الكاهن كانتا تحت تصرفه وتصرف أعداد كبيرة من مساعديه. وقد ألحق بومبيوس مقاطعات كثيرة بهذا المكان، ودعا زيلا مدينة، مثلها مثل ميغالوبوليس؛ ووحد بومبيوس هذه الأخيرة مع منطقتي كولبينا وكاميسينا (تقع هاتان المنطقتان على الحدود مع أرمينيا الصغرى ولافيانسينا، وفيهما ملح صخري، إضافة إلى قلعة كاميسا القديمة العهد التي باتت الآن ركماً). وقد منح الولاة الرومان فيما بعد شطراً من هاتين المنطقتين إلى كاهن كومانا، وأعطوا الشطر الآخر

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

لكاهن زيلاً، والشطر الثالث لأتيبوريج، أحد الحكّام الذين ينتمون إلى سلالة تترارخيي غلاطيا. وبعد وفاته آلى هذا الشطر الصغير الآن للرومان تحت مسمى ولاية (وهو يشكل فعلاً دولة مستقلة منذ أن ضمّوا إليه مدينة كارانا، فباتت البلاد كلّها تدعى كارانيتيدا نسبة إلى هذه المدينة)، أمّا الشطر المتبقي فيتبع لبيثودوريدس وديتيفيت.

38- ويبقى أمامنا الآن أن نصف شطر البونتس الواقع بين هذه المنطقة ومنطقتي الأميبيين والسينوسيين، وهو الشطر الذي يمتدّ نحو قبدوقيا، وغلاطيا، وبافلاغونيا. وبعد منطقة أميسينا وصولاً إلى نهر هاليس تقع فازيمونيتيدا التي غير بومبيوس اسمها فدعاها نيابوليتيدا، وأعلن مكاناً يقع عند قرية فازيمون مدينة دعاها نيابوليس⁽⁷⁰⁾. وتشكّل الحدود الشمالية لهذا الشطر كلّ من منطقة غازيونيتيدا وأمينيسينا، بينما يشكل حدودها الغربية نهر هاليس، والشرقية فاناريا، والشطر المتبقي - بلادي أنا- منطقة الأماسيين، هي من غير ريب المنطقة الأكبر والأفضل بين المناطق الأخرى كلّها. وتقع في شطر فازيموليتيدا المتاخم لفاناريا بحيرة بحجم البحر تدعى ستيفانا؛ وهي بحيرة غنية بالأسماك، وتمتدّ في الضواحي مراعى خصبة متنوّعة. وتقع على شاطئ البحيرة قلعة إيكيزاري⁽⁷¹⁾ الحصينة، لكنّها الآن مهجورة، وغير بعيد عنها تقع العاصمة المدمّرة. وما تبقى من هذه البلاد أكثره خال من الغابات، وينتج الأقماع. وتقع فوق منطقة الأماسيين ينابيع الفازيمونيتيين الحارّة التي تتمتع مياهها بخصائص علاجية عالية، ويقوم هنا على جبل عال شديد الانحدار ينتهي بقمة حادّة حصن ساغيليس، وحوض مائي غزير المياه مهمل الآن، لكنّه كان فيما مضى ذا منافع للملوك في ميادين كثيرة. وهنا أخذ أبناء الملك فانناك، أرساك أسيراً وقتلوه، لأنه كان أخذ يؤدّي دور الحاكم من غير إذن أيّ وال روماني ثمّ أعلن العصيان وأثار انتفاضة. فقد وقع هذا أسيراً بعد أن استولى الملكان بوليمون وليكوميد على القلعة تحت وطأة تجويع من كان فيها وليس بالقوة المسلحة، وبعد أن طرد أرساك من السهل لجأ إلى الجبال من غير أيّ احتياطات تموينية، فوجد هناك الأحواض المائية التي تحيط بها صخور عظيمة. وكان هذا قد حصل فعلاً بأمر من بومبيوس الذي أمر بهدم التحصينات، جاعلاً منها عديمة النفع لأولئك الذين كانوا يريدون الفرار إلى الجبال ليمارسوا النهب والسلب انطلاقاً من هناك. وقد أقام بومبيوس مثل هذا النظام في فازيمونيتيدا أيضاً؛ وفيما بعد قسّم الحكّام هذه البلاد أيضاً ووزّعوها على الملوك.

39- تقع مدينتي الأم⁽⁷²⁾ في نجر كبير عميق يجري عبره نهر إريدا. وهي مدينة منظمة تنظيمياً بديعاً ومجهزة بالمرافق كلها، سواء التي بناها الإنسان أو التي بنتها الطبيعة نفسها، كما تجمع بين ميزات المدينة وميزات الحصن. فهي صخرة شاهقة تتحدر انحداراً شديداً نحو النهر من جوانبها كلها؛ من إحدى جهاتها يمتد سور على أطراف النهر، حيث بنيت المدينة، وعلى الجهة الأخرى يرتفع السور على الجانبين حتى قمتي الجرف الصخري. وتتصل القمّتان بعضهما مع بعض اتصالاً طبيعياً، وترتفعان بشكل جميل جداً على صورة برجين. وتقع في هذا الحيّز، القصور والأضرحة الملكية. وعلى القمّتين برزخ ضيق جداً يبلغ ارتفاعه 5 أو 6 مراحل من الجانبين، إذا ما صعدت الجبل من ضفة النهر وضواحي المدينة؛ ومن البرزخ حتى القمّتين يصعد مرتفع شاقولي آخر امتداده مرحلة واحدة، ويشكل عقبة كأداء لا يمكن لأيّ هجوم أن يتجاوزها. وعلى الصخرة من الداخل حوض مائي لا يمكن عزله عن المدينة لأنهم حضروا في الصخر قناتين داخليتين، تصل إحداهما إلى النهر، والأخرى إلى البرزخ. ويمتد فوق النهر جسران يصل أحدهما بين المدينة وضواحيها، والآخر بين الضاحية والأطراف، لأنّ حدود الجبل الذي يرتفع فوق الجرف الصخري تنتهي عند هذا الجسر. ثمّ يأتي بعد ذلك واد يمتد من النهر، وهو غير عريض في أوّله، لكنّه لا يلبث أن يتسع ليشكل ما يدعى سهل هيليوكومون⁽⁷³⁾. ثمّ تلي ذلك منطقتا دياكوبينا، وبيموليسينا، وهما منطقتان خصيبتان تمتدان حتى هاليس. وتشكلان الأجزاء الشمالية من منطقة الأماسيين؛ ويبلغ طولهما 500 مرحلة تقريباً. ويأتي بعد ذلك الشطر المتبقي من البلاد، وهو أطول بكثير من هذه، إذ يمتدّ حتى بابانوم وكسمينا (وتمتدّ هذه الأخيرة نفسها حتى هاليس). وعلى هذا النحو يكون هذا هو طول هذه البلاد، أمّا عرضها فيمتدّ من الشمال إلى الجنوب حتى زليتيديا وقبدوقيا الكبرى وصولاً إلى منطقة التروكميين. وتوجد في كسمينا غلايات الملح الصخري التي يظنون أنّ نهر هاليس أخذ اسمه منها. وفي بلادنا عدّة تحصينات مهدّمة وكثير من الأراضي المهجورة نتيجة لحرب ميتريدات. لكنّ الغابات تغطي البلاد كلها، وبعضها صالح كمراع للخيول وتربية الحيوانات الأخرى، بيد أنها كلها ملائمة أحسن الملائمة لعيش الإنسان فيها. وأعطيت أماسيا للملوك أيضاً، لكنّها الآن ولاية رومانية.

40- ويبقى أيضاً ذلك الشطر من الولاية البونتيّة الذي يقع وراء نهر هاليس: المنطقة القريبة من جبل أولغاسي الذي يتاخم سينوبيدا. وأولغاسي جبل شاهق جداً

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثالث

يصعب صعوده. وتقع المعابد المبنية عليه كلها بين أيدي البافلاغونيين وفي ضواحيه منطقتان خصبتان إلى درجة كبيرة، هما بلاينا ودومانيديدا؛ ويجري عبر هذه الأخيرة نهر أمنيوس. وهنا أباد ميتريدات إيفباتور إبادة كاملة قوَّات نيقوميديس البيثيني، ولكنَّه لم يفعل ذلك شخصياً، بل بمساعدة قادة قوَّاته. ولكنَّ نيقوميديس نجح في الفرار مع بعض مرافقيه عائداً إلى دياره؛ وأبحر من هناك إلى إيطاليا؛ فلاحقه ميتريدات واستولى في طريقه على بيثينا وامتلك آسيا وصولاً إلى كاريا وليكيا. وتحول هنا أيضاً أحد الأماكن الصغيرة إلى مدينة حملت اسم بومبيبوليس. ويقع في هذه المدينة جبل سانداراكورغي غير بعيد عن بيموليس، وهي حصن ملكيٍّ مدمرٌ دعيت باسمه البلاد الواقعة على ضفتيَّ النهر: بيموليسينا وجبل سانداراكورغي⁽⁷⁴⁾ جبل مجوَّف من الداخل بسبب أعمال حفر المناجم فيه؛ لقد حفر عمال المناجم هناك ممرات كبيرة تحت الأرض. وكان يدير عمليات التعدين في تلك المناجم مستثمرون كانوا يستخدمون للعمل فيها العبيد والمجرمين الذين يبيعوا عبيداً. فعدَّك عن أعباء العمل المضني يقولون، إن الهواء في تلك المناجم كان مهلكاً ولا يطاق بسبب رائحة الفلزات الكريهة، ولذلك كان الناس الذين يعملون هناك محكومين بموت عاجل. ولكنَّ استثمار المناجم كان يتوقَّف في أحيان كثيرة إذ يغدو غير ذي جدوى، فأعداد العاملين كان يتجاوز المتني عامل، ولكنَّ العدد كان يتناقص باستمرار بسبب الأمراض والموت.

لقد كان هذا ما ينبغي قوله عن البونتس.

41- ويأتي بعد بومبيبولس ما تبقى من بافلاغونيا الداخلية في الاتجاه غرباً وصولاً إلى بيثينا. وقبل زمننا ببعض الوقت كان يوجد في هذه البلاد عدد من الحكام (مع أنها ليست كبيرة جداً)، ولكن، بما أنَّ السلالة الملكية اندثرت، فإنَّ الرومان هم الذين يملكون البلاد الآن. وتدعى المناطق المجاورة لبيثينا، تيمونيتيدا، و«منطقة الهيزاتورغييس»، ومارموليتيدا، وسانيسينا، وبوتاميا. كما كانت توجد هنا منطقة ما تدعى كيميأتينا؛ وكان يقوم فيها عند سفوح سلسلة جبال أولغاسي حصن طبيعي منيع يدعى كيميأتا. وقد استخدم ميتريدات الملقَّب كتيست⁽⁷⁵⁾، هذا الحصن نقطة استناد حينما غدا سيِّداً على البونتس؛ وحافظ حلفاؤه بعده على توارث العرش وصولاً إلى إيفباتور. وكان ديوتار بن كاستور الملقَّب فيلادلف آخر ملوك بافلاغونيا. وقد استولى هذا على عاصمة مورزيه، غانغارا التي كانت مدينة صغيرة وحصناً في الآن عينه.

42- ويتحدّث إيفدوكس عن أسماك أحفورية في «أماكن جافة» من بافلاغونيا، لكنّه لا يحدّد هذه الأماكن بدقّة. وعلى حدّ قوله إن الأسماك الأحفورية موجودة أيضاً في الأماكن «الرطبة» قرب بحيرة أسكانيا الواقعة تحت كيوس، بيد أنه لا يقول أيّ شيء محدّد في هذا الخصوص. وبما أنني أصف الآن شطر بافلاغونيا الذي يجاور البونتس، بينما يجاور البيثينيون بافلاغونيا من الغرب، لذلك سأحاول أن أصف بلادهم أيضاً. وإذا بدأ بعد ذلك من جديد من مناطق هذا الشعب ومناطق البافلاغونيين، فإني أصل وصف المناطق التي تليهم نحو الجنوب وصولاً إلى طوروس، أيّ على وجه التحديد، المناطق التي تمتدّ بموازية البونتس وقبدوقيا. فالشروط الطبيعية في هذه المناطق، هي التي تفرض نظام هذا الوصف.

الفصل الرابع

1- تتجاوز بيثينا من الشرق مع البافلاغونيين، والماريانديانيين، وبعض الإيببكتيتيين⁽¹⁾؛ ومن الشمال مع بحر البونتس بدءاً من مصبّ سانغاروس حتّى مدخل بحر البونتس عند بيزنطا وخليكدون؛ وتتجاوز من الغرب مع البروبونتيدا؛ ومن الجنوب مع ميسيا وما يدعى فريجيا إيببكتيت التي تدعى أيضاً فريجيا الهليسبونتية.

2- وتقع في هذه البلاد الأخيرة لدى الدخول إلى البونتس كلّ من خليكدون التي أسّسها الميغاريون، وقرية كريسوبوليس، والمعبد الخلكيدوني. وعلى أراضي المدينة، إلى الأعلى قليلاً من البحر، يقع ينبوع يدعى أزاريتيا تعيش فيه تماسيح صغيرة. ويتاخم الساحل الخلكيدوني بعد ذلك، الخليج الاستانكي الذي يعدّ جزءاً من البروبونتيدا. وقد بنيت في هذا الخليج مدينة نيقوميديا التي دعيت باسمها هذا تيمناً باسم مؤسسها وهو أحد ملوك بيثينا⁽²⁾. وحمل كثير من الملوك البيثينيين الاسم نفسه (مثلهم في هذا مثل البطالمة)، تخليداً لأمجاد أوّل ملك منهم. وكانت تقوم في الخليج مباشرة مدينة أستاك التي أسّسها الميغاريون والأثينيون، ثمّ تبعهم ديدالس. وقد دعي الخليج نفسه باسم المدينة. لكنّ ليسيماخ دمرّ المدينة، أمّا سكانها فقد أسكنهم مؤسس نيقوميديا فيها.

3- ويجاور الخليج الأستانكي خليج آخر يمتدّ بعد ذلك نحو مطلع الشمس؛ وفيه تقع بروسيدا التي كانت تحمل قبل ذلك اسم كيوس. وقد دمرّ فيليب بن ديميتري ووالد برسيسوس، دمرّ كيوس. ثمّ منح المدينة المدمّرة لابن زيلا بروسوس الذي

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الرابع

شاركه في تدمير المدينة ومدينة ميرلييا المجاورة التي تقع قرب بروسا. ثم أعاد بروسوس تعمير المدينتين، ودعا كيوس بروسيادا، على اسمه هو، ودعا ميرلييا باسم زوجته: أقاميا. وهذا البروسوس هو نفسه الذي منح هنيبعل ملجأً عنده (وكان هنيبعل قد اضطر إلى الفرار إلى هناك بعد هزيمة أنطوخ). وغادر بروسوس فريجيا الهليسيونتيّة عملاً بالاتفاق الذي عقده مع الأثاليين. وكانت هذه البلاد تدعى من قبل فريجيا الصغرى، لكنّ الأثاليين دعوها إيبىكتيت⁽³⁾. ويعلو فوق بروسيادا جبل يدعى أرغانثونيوس. وفي هذا المكان، كما تروي الأسطورة، خطفت الحوريات هيل، أحد مرافقي هرقل الذي كان يبحر معه على السفينة آرغو ونزل ليأتي بماء للشرب. أمّا كيوس (وكان أيضاً من مرافقي هرقل على السفينة آرغو)، فلدى العودة من كولهدا بقي هنا وأسس مدينة حملت اسمه. وحتى أيامنا هذه لا يزال البروسيون يحيون مناسبة ما تشبه الاحتفال: تيه في الجبال ترافقه مواكب باخوسية ينادون أثناءها هيل كأنهم يخرجون إلى الغابات بحثاً عنه. وبما أنّ البروسيين سلكوا سلوكاً ودياً تجاه الرومان، فقد نالوا منهم الحرية. أمّا الأفاميين فقد اتخذوا من الرومان موقفاً مغايراً، لذلك كان عليهم القبول بمستعمرة رومانية على أراضيهم. وتقع بروسا على الأوليمب الميسيسي. ولهذه المدينة دولة بناؤها بديع، وهي تتاخم الفريجين والميسيسيين. وتأسست المدينة على يديّ بروسيوس الذي حارب قورش⁽⁴⁾.

4- ومن الصعب تحديد حدود البيثنيين، والفريجين، والميسيسيين، وكذلك الدوليونيين الذين يعيشون حول كيزيك، والميغدونيين، والطروديين. ومن المتعارف عليه أنه ينبغي أن يعدّ كلّ شعب من هذه الشعوب، شعباً «قائماً بذاته» (بل شاع عن الفريجين والميسيسيين مثل يقول:

الميسيسيون والفريجيون بلدان منفردة)

ولكنّ تعيين الحدود بينها أمر صعب. ويكمن سبب هذه الظاهرة في أنّ الوافدين، أي المستعمرين، كونهم برابرة ومقاتلين لم يرسخوا سيطرتهم على البلاد التي أخضعوها. وأكثرهم تاه في البلاد، يطردون السكّان تارة، ويُطردون هم أنفسهم تارة أخرى. ويمكننا أن نفترض أن هذه الشعوب كلّها كانت شعوباً تراقية، لأنّ التراقيين كانوا يقطنون على الساحل المقابل⁽⁵⁾، وقلما يختلف بعضهم عن بعض.

5- ولكن، بقدر ما نستطيع أن نتخيّل، فإن ميسيا تقع في الوسط بين بيثينا

سترابون ————— الجغرافيا

ومصبّ إيسيب، وتلامس البحر لتمتدّ حتّى الأوليمب كلّه تقريباً. وفي عمق البلاد تتوضّع حول ميسيا، فريجيا إيببكتيت التي لا تلامس البحر في أيّ مكان، وتمتدّ حتّى الأجزاء الشرقية من بحيرة أسكانيا ومحيطها؛ وقد حملت البحيرة والمنطقة الاسم نفسه. وكان شطر من هذه المنطقة فريجيّ، والشطر الآخر ميسيسيّ. وكان الشطر الفريجيّ يقع بعد طروادا. وعلى هذا النحو ينبغي أن نفهم كلمات هوميروس حينما يقول:

فوركيس وأسكانيوس المقدام، قادا جحافل

الفريجيين من أسكانيا؛

(الإلياذة II، 862)

ومن أسكانيا على وجه التحديد، لأنّ موقع أسكانيا الأخرى، أسكانيا الميسيسية أقرب، عند نيقيا الحالية؛ وقد أتى هوميروس على ذكرها حين قال:

بالموس، وأسكانيوس ولدا هيبوتيون، قائدان،

وصلا بالأمس من أسكانيا ليأخذا مكانهما في المناوبة.

(الإلياذة XII، 792)

وليس ثمة ما هو غريب في أن يتحدث الشّاعر عن أسكانيوس واحد كقائد للفريجيين آت من أسكانيا، وعن آخر قائد للميسيسيين آت من أسكانيا كذلك؛ فغالباً ما نقرأ لدى هوميروس أسماء متماثلة، وألقاباً متطابقة مأخوذة من أسماء الأنهار، والبحيرات، والمناطق.

6- ويرى هوميروس نفسه في إيسيب حدود الميسيسيين. وإذ يذكر الشّاعر منطقة طروادا السفحية الواقعة فوق إيليون والتابعة لإينياس (التي دعاها هو داردانيا)، يوضّع إلى الشمال مباشرة ليكيا، وهي منطقة تابعة لبينداروس، حيث كانت تقع زيليا، ويقول:

والرجال الذين عاشوا عند سفوح إيذاً

مواطنون أثرياء يشربون مياه إيسيب القاتمه،

إنهم قبيلة طروادية.

(الإلياذة II، 824)

وتحت زيليا عند البحر، على هذا الجانب من إسيب، يقع سهل أدراستيا، وجبل تيريبيا، وجبل بيتيا (وعلى وجه العموم كيزيكينا الحالية الواقعة قرب برياب)، الذي يذكره الشّاعر بعد زيليا⁽⁶⁾ مباشرة. ويعود هوميروس من جديد إلى المناطق الشرقية والمناطق الواقعة وراء إسيب، مؤكّداً بهذا على أنه يرى في المنطقة الواقعة قبل إسيب الحدود الشمالية والشرقية لطرودا. وعلى أيّ حال تأتي بعد طرودا، ميسيا، والأوليمب. وتشير الحكاية القديمة إلى أن وضع هذه القبائل كان على هذا النحو تقريباً، ولكنّ التغيرات الراهنة جاءت نتيجة لكثير من المستجدات. ففي أزمنة مختلفة كانت هذه القبائل تحت سلطة مختلف الحكّام، وفي غضون ذلك كان بعض هؤلاء يوحدّها، وبعضهم الآخر يفرّقها إلى أجزاء. فبعد سقوط طرودا ساد على هذه القبائل الفريجيون، والميسيسيون؛ وفيما بعد الليديون، وبعدهم الإيوليون، والإيونيون، وبعد ذلك الفرس، والمقدونيون، وأخيراً الرومان. وفي ظلّ السيطرة الرومانية، فقد الجزء الأكبر منها حتّى لغته الأمّ واسمه، نتيجة لتقسيم البلاد. ويستحسن أن أتوقف عند هذا التقسيم لدى وصفي للوضع الراهن⁽⁷⁾، مولياً في غضون ذلك الاهتمام الواجب لما كان عليه واقع الأشياء قديماً.

7- وفي أعماق بيثينا تقع بيثينوس تحت ثيبى بمنطقة تمتدّ قرب سالون التي تعدّ مرعى خصيباً للقطعان (ومن هنا جبهة سالون)؛ ثمّ تأتي نيقيا عاصمة بيثينا الواقعة على بحيرة أسكانيا (ينبسط حولها سهل شاسع شديد الخصوبة، لكنّه ليس صحياً في الصيف). وكان أوّل مؤسس لنيقيا، هو ابن فيليب أنتيغون، وقد دعاها أنتيغونيا، ثمّ تلاه ليسيماخ، الذي غير اسمها إلى نيقيا، وهو اسم زوجته التي كانت ابنة أنتيباتر. ويبلغ امتداد محيط المدينة 16 مرحلة، وهي مربعة الشكل؛ وفيها أربع بوابات، وتقع في سهل، وتقطعها الشوارع؛ ولذلك يمكن رؤية بوابات المدينة الأربع من على حجر قائم في وسطها، في الجمنازيوم. وإلى الأعلى قليلاً من بحيرة أسكانيا تقع مدينة أوتريبيا، على الحدود الشرقية لبيثينا. ويُعتقد أن أوتريبيا سميت على اسم أوتريبوس.

8- وكان سكيلاك الكاريانديّ أوّل من أخبر أن بيثينا كانت موطن الميسيسيين (بحسب قوله، إن الفريجين والميسيسيين كانوا يعيشون حول بحيرة أسكانيا). ثمّ ذكر ذلك بعده ديونيسيوس الذي كتب مؤلفاً عنوانه «إنشاء المدن». ويقول هذا، إنّ المضيق الذي عند خلكيدون وبيزنطا، الذي يدعى الآن بالبسبور التراقي، كان يدعى من قبل بالبسبور الميسيسي. ويمكن أن يؤخذ هذا الخبر

كشهادة على أنّ الميسيسييين كانوا تراقيين. وعندما يقول يوثوريون:

هناك عند الأمواج الأسكانية، عند التيار الميسيسي،

والإسكندر الإيثولي:

أولئك الذين تقوم مساكنهم عند شخابيب أسكانيوس الصافية،

وعلى شواطئ بحيرة أسكانيا، هناك حيث عاش

دوليون بن ميليا الماجد، الذي أنجبه سيلينوس،

فإنهما يشهدان بهذا على الأمر نفسه، لأنه لا يوجد في أيّ مكان آخر بحيرة تحمل اسم بحيرة أسكانيا إلا هنا.

9- ومن مواطني بيثينا علماء ذاع صيتهم مثل: الفيلسوف كسينوقراط، والديالكتيكي ديونيسيوس، وعالم الرياضيات هيبارخ، وثيودوسيوس وأبناؤه، وعالم البلاغة كليوخار، الميرلي، والطبيب أسكليبيدس البروسي.

10- وإلى الجنوب من البيثنيين يقطن الميسيسيون حول الأوليمب (ويدعو بعضهم هؤلاء بالأوليمبيين، بينما يدعوهم الآخرون هلسبونتيين)، وتقع فريجيا التي على الهلسبونت، وإلى الجنوب من البافلاغونيين يقطن الغلاطيون. وأبعد من هذه الشعوب نحو الجنوب، تقع فريجيا الكبرى وليكاونيا وصولاً إلى طوروس الكيليكي والبيسيدي. وبما أنّ الأراضي التي تتاخم بافلاغونيا تقع على ساحل البونتس، عند قبوقيا والشعوب التي وصفناها، فقد كان ينبغي عليّ أن أضيف في البداية وصف الأراضي المجاورة لها، وانتقل بعد ذلك للحديث عن البلدان التي تليها.

الفصل الخامس

1- وبعد ذلك إلى الجنوب من البافلاغونيين يعيش الغلاطيون. وهم ثلاث قبائل: اثنتان منها تحملان اسمي زعيمين- التروكميون والتوليستوبوغيون، أمّا القبيلة الثالثة، قبيلة التكتوساغيين فقد دعيت باسم قبيلة من قبائل سيلتيا⁽¹⁾. وقد شغل الغلاطيون هذه البلاد بعد ترحال استمرّ طويلاً. فقد غزوا البلاد الخاضعة للملوك الأتاليين والبيثنيين ونهبوها إلى أن تنازل لهم هؤلاء طوعاً عن غلاطيا الحالية، أو غلاطيا اليونان كما يدعونها. وعادة ما يرون في ليونور زعيمهم الرئيس الذي قاد حملتهم وعبورهم إلى آسيا. وتتحدّث قبائل الغلاطيين الثلاث لغة واحدة، ولا تختلف واحدتها عن الأخرى في أيّ شيء؛ وانقسمت كلّ قبيلة إلى أربعة أقسام كلّ منها يدعى تيترارخيا،

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الخامس

وكان يقف على رأس كل تيترارخيا تيترارخ، كما كان لكل منها قاض، وقائد عسكري يخضعان للتيترارخ، إضافة إلى اثنين من صغار القادة العسكريين. وكان مجلس هؤلاء التيترارخ الاثني عشر يتألف من 300 عضو يجتمعون فيما يدعى درينميت. وكان هذا المجلس يفصل في القضايا التي تتصل بجرائم قتل التيترارخ والقضاة وباقي الناس الآخرين. إن تلك هي بنية الدولة الغلاطية في الزمن القديم؛ أما في زمننا هذا فقد انتقلت السلطة إلى ثلاثة حكام، ثم إلى اثنين، وبعد ذلك إلى حاكم واحد، هو ديوتار، وأخيراً إلى أميننا الذي ورثه. ويملك الرومان الآن هذه البلاد، كما يملكون أيضاً المنطقة الخاضعة لأمينتنا، وقد شكّلوا منهما ولاية واحدة⁽²⁾.

2- يشغل التروكميون المناطق الواقعة على مقربة من البونتس وقبدوقيا. وهذه المناطق هي المناطق الأفضل بين المناطق التي يقطنها الغلاطيون كلها. وفيها ثلاثة حصون محاطة بالأسوار: تافوس، وهو المركز التجاري لسكان هذا الشطر من البلاد؛ وفيه تمثال برونزي ضخم لزيوس، وأرض مقدّسة مكرّسة له تعدّ ملجأ للأفراد؛ وميثريديا تيوس الذي منحه بومبيوس لبوغوديتر بعد أن انتزعه من المملكة البونتيّة؛ والحصن الثالث، هو حصن دانالا، الذي عقد فيه اللقاء بين بومبيوس ولوكولا. وكان بومبيوس قد جاء إلى هنا ليحلّ محلّ لوكولا في قيادة الحرب، فسلمه هذا الأخير قيادة الجيش وغادر البلاد ليحتفل بمهرجان النصر. وعلى هذا النحو يمتلك التروكميون هذه المناطق، أمّا التيكتوساغيون فإن بلادهم تقع قرب فريجيا الكبرى مجاورة بيسينونت ومنطقة الأوركاوركيين. ويمتلك التيكتوساغيون حصن أنكيرا سمّي مدينة فريجية صغيرة تقع على الطريق إلى ليديا بجوار بلافدوس. ويقطن التوليستوبوغيون على الحدود مع البيثنيين وما يدعى فريجيا إيبىكتيت. وعندهم حصنان: بلوكي وببي؛ وقد كان الأوّل منهما عاصمة ديوتار، والثاني مقرّ خزنته.

3- وتعدّ بيسينونت المركز التجاري الأكبر في هذا الشطر من العالم. ويقع هنا معبد لأمّ الآلهة يحظى بإجلال عظيم جداً. ويدعوها السكان هنا أغديستيدا. وفي الزمن القديم كان الكهنة هنا بمثابة حكام، وكانت الوظيفة الكهنوتية تدرّ موارد كبيرة، أمّا الآن فقد تقلّصت إلى حدّ كبير الامتيازات التي ترتبط بهذا اللقب، على الرغم من أن المركز التجاري بقي على حاله من الازدهار. فقد عمّر الملوك الأتاليون الأرض المقدّسة بما يليق بها كمكان مقدّس: شيدّ هناك معبد ورواق من حجر المرمر الأبيض. ونال المعبد شهرة كبيرة بفضل الرومان الذين جاؤوا من هناك بتمثال الإلهة

نزولاً عند إرادة متبني سيبيلاً، كما جاؤوا أيضاً بتمثال أسكليبوس من إيبيدافروس. ويقع هناك أيضاً جبل دينديم الذي يرتفع فوق المدينة، والذي حملت منطقة دينديمينا اسمه، مثلما أخذت كيبيلاً اسمها من جبل كيبيلي. وغير بعيد من هنا يجري نهر سانغاروس. وتقع على هذا النهر مستوطنات الفريجين القدمتان، ميداس وغوردوس (التي كانت موجودة من قبل أيضاً) وبعض المستوطنات الأخرى. ولم تحافظ هذه المستوطنات حتى على آثار من مدن، بل كانت مجرد مستوطنات أكبر بقليل من المستوطنات الأخرى، كمستوطنة غوردوس مثلاً، ومستوطنة غوريونت عاصمة كاستور بن ساوكونداريوس، حيث قتل ديوتار صهره كاستور وزوجته ابنة هذا الأول. ثم أمر بهدم التحصينات ونهب العدد الأكبر من القرى والمستوطنات.

4- وبعد غلاطيا نحو الجنوب تقع بحيرة تاتا التي تمتد على مقربة من قبوقيا الكبرى غير بعيد عن الموريمينين (تعدّ البحيرة جزءاً لا يتجزأ من فريجيا الكبرى)، والمنطقة المتاخمة لهذه البحيرة وصولاً إلى طوروس، التي كان الشطر الأعظم منها خاضعاً لسلطة أمينتا. وتعدّ بحيرة تاتا غلاية ملح طبيعية. فماء البحيرة يتحوّل بسهولة فائقة إلى بلورات تتجمّع حول مادة تسقط فيه، وعندما يرمون إلى هناك حلقات مجدولة من القصب، يستخرجون من البحيرة ضفائر من الملح؛ وبسبب سرعة تحوّل ماء البحيرة إلى بلورات من الملح سرعان ما تسقط الطيور التي تلامس مياهها بأجنحتها ويغدو التقاطها سهلاً.

الفصل السادس

1- إن هذه هي بحيرة تاتا. أمّا المناطق المحيطة بالأوركاوركيين، وبيتيسا، ومرتفعات الليكاونيين، فهي مناطق باردة وخالية من النباتات؛ وتسرح هناك أسراب من الحمير البرية، والماء فيها شحيح جداً. وحتى هناك حيث يمكن أن تجد ماء، فإنه موجود في أكثر الآبار عمقاً، كما في سواترا على سبيل المثال، حيث يباع الماء فيها (سواترا مكان قرب غارسافرا) ومع أن الماء مفقود في هذه البلاد، إلا أن الأغنام تربي فيها بطريقة مدهشة، والحقيقة أن صوف هذه الغنام خشن جداً. وقد جمع بعضهم من هذا العمل ثروات كبيرة. فامينتا كان له في هذه المنطقة 300 قطيع من الأغنام. وثمة بحيرة هنا أكبر من بحيرة كوراليدا وأصغر من بحيرة تروجيتيدا. وفي مكان ما هنا تقع مدينة إيكونوس الصغيرة التي تسكن فيها أعداد كبيرة من الناس؛ وأرض هذه

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل السادس

المدينة أكثر خصوبة من أرض المنطقة التي ذكرناها آنفاً، حيث تسرح أسراب الحمير البرية. والمدينة تحت سلطة بوليمون. وتقترب كثيراً من هذه المناطق جبال طوروس التي تفصل قبدوقيا وليكاونيا عن كيليكيا التراخية الواقعة إلى الأعلى منهما. وتمرّ الحدود بين الليكاونيين والقبدوقيين بين كوروباس- مستوطنة لليكاونيين- ومدينة غارساورا القبدوقية. والمسافة بين هذين الحصنين تقارب 120 مرحلة.

2- وإلى ليكاونيا تنتمي أيضاً إيسافريا الواقعة عند طوروس مباشرة؛ وفيها قريتان تحملان اسم إيسافرا: إيسافرا القديمة، وإيسافرا الجديدة (وهي محصنة تحصيناً جيداً). وكانت هاتان القريتان قد فرضتا سلطانهما على كثير من القرى الأخرى؛ وكانت هذه القرى كلها قرى لقطع الطرق. وقد تسببت بكثير من المتاعب حتى للرومان أنفسهم، خاصة لبوبليوس سرفيليوس الملقب بالإيسافري، وقد تسنى لي أن أتعرف إليه. فقد أخضع هذه القرى للرومان ودمّر أكثر حصون القراصنة على ساحل البحر.

3- وعلى أطراف إيسافريكا تقع ديريا التي تتاخم قبدوقيا، - عاصمة التيران أنتيباتر الديربتي. وتقع تحت سلطة هذا الأخير لاراندا أيضاً. وفي زمننا هذا امتلك أميننا كلاً من إيسافرا وديريا. فقد شنّ هجوماً على الديربتي وقتله، مع أنه كان قد تلقى إيسافرا من الرومان. وقد بنى لنفسه هنا عاصمة فعلاً، بعد أن دمرّ إيسافرا القديمة. وإذ شرع يبني في المكان عينه سوراً جديداً، لم يتسنّ له مع ذلك إتمامه، فقد قتله الكيليكيون عندما اجتاح منطقة الهوموناديين، بعد أن أخذوه من الحصار أسيراً.

4- وبعد أن استولى على منطقة أنطاكيا الواقعة عند بيسيديا، وصولاً إلى أبولونيادا الواقعة قرب أفاميا كيبوت، وشطر من السفوح الجبلية وليكاونيا، حاول أميننا أن يدمّر الكيليكيين والبيسيديين الذين فروا من طوروس إلى هذه البلاد التي كانت تحت سلطة الفريجيين والليكاونيين⁽¹⁾. وقد نجح بالاستيلاء على كثير من المواقع التي كانت من قبل عصية، لاسيما كريمنا. لكنّه لم يحاول مجرد محاولة أن يستولي على ساندالوس الواقعة بين كريمنا وساغلاس.

5- ويشغل المستعمرون الرومان كريمنا، بينما أخضعت ساغلاس للحاكم الروماني الذي كان يحكم مملكة أميننا كلها. وتقع ساغلاس على مسير يوم واحد من أفاميا، ويبلغ امتداد المنحدر إليها من هذه القلعة حوالي 30 مرحلة. وتدعى هذه المدينة باسم آخر أيضاً هو سيلغيس، وقد استولى عليها الإسكندر. لقد استولى أميننا

على كريمنا؛ وعندما دخل منطقة الهوموناديين التي كانت تعدّ قبل ذلك عصيةً، بات سيّداً على أكثر الأماكن المحليّة، بل قتل التيران المحليّ، لكنّ زوجة التيران تمكّنت من أن تغدر به وتأخذه أسيراً. لقد سلّم الهوموناديون أمينتا للموت، أمّا هم أنفسهم فقد أرغمهم الجوع على الاستسلام لكويرينوس⁽²⁾. وأخذ هذا 4000 أسير منهم وأسكنهم في المدن المجاورة، فحرم البلاد بذلك من سكّانها القادرين على حمل السلاح والدفاع عنها. وفي مناطق طوروس المرتفعة، في الوسط بين المنحدرات الشاقولية المريعة التي يتعدّد اجتياز أكثرها، يقع واد عميق وخصيب ينقسم [بدوره] إلى عدد من الوديان. وكان السكّان الذين يحرثون هذا الوادي يقيمون بين الصخور أو في الكهوف التي تعلو فوق الوادي. وكان أكثر هؤلاء من المسلّحين الذين يغيرون على أراضي الغير، وكانت الجبال في غضون ذلك تشكل أسواراً تحمي بلادهم.

الفصل السابع

1- ويجاور البيسيديون هذه الأقوام، خاصة السيلغيين، وهم أكبر قبائل البيسيديين. ويشغل القسم الأعظم منهم قمم طوروس. لكنّ بعضهم يعيش في منطقة المرتفعات المزروعة بشجر الزيتون في كلّ مكان، وفوق المدينتين البامفليتين سيدا وأسبيند. ويشغل المنطقة الواقعة إلى الأعلى من المنطقة الجبلية جيران السيلغيين والهوموناديين: الكاتينيون؛ أمّا الساغالاسيون فلهم المنطقة الواقعة على هذه الناحية من طوروس، قرب ميلليادا.

2- وعلى حدّ قول أرتيميدور إن مدن البيسيديين هي الآتية: سيلغا، وساغالاس، وبيتيليس، وأدادا، وتيمبيادا، وكريمنا، وبيتياس، وأمبلادا، وأنابورا، وسيندا، وأراس، وتارباس، وتيرميس. ويعيش فريق من هؤلاء البيسيديين في الجبال فقط، ويتنشر فريق آخر منهم حتّى السفوح على جانبي السلسلة الجبلية نحو بامفليا وميلليادا؛ ويجاور هؤلاء الفريجيين والليديين، والكاريين، الذين يعدّون كلّهم أقوام مسالمة على الرغم من أنهم يعيشون إلى الشمال [من طوروس]. أمّا البامفليون الذين يجمعهم الكثير مع الكيليكيين، فهم على الضدّ تماماً، إذ لا يتعفّفون عن ممارسة الغزو والنهب ولا يدعون جيرانهم يعيشون بسلام، مع أنهم يشغلون الأجزاء الجنوبية من سفوح طوروس. وعلى الحدود مع الفريجيين وكاريا تقع تابا، وسيندا، وأمبلادا، التي يستورد منها النبيذ الأمبلادي الذي يستخدم للمداواة.

3- ويتوزع باقي البيسيديين الجبلين المذكورين على عدد من القبائل التي يحكمها التيران، وكان هؤلاء يمارسون الغزو والسلب، مثلهم مثل الكيليكين. ويقولون، إن بعض الليليغيس- قبيلة رحل- تخالطوا معهم قديماً وأقاموا هناك بدافع وحدة نمط العيش بين الفريقين. وفي بادئ عهدا تأسست مدينة سيلغا على أيدي اللاكيديمونين، وقبل ذلك على أيدي كالكانس. وفيما بعد بقيت المدينة مستقلة وبفضل إدارة شؤونها وفق القانون حققت مستوى عالياً من الجبروت، وبلغ عدد سكانها في زمن مضى 20.000 نسمة. وطبيعة هذه المنطقة مدهشة: تتوضع بين قمم طوروس أراض تربتها شديدة الخصوبة تكفي لإطعام عشرات آلاف الناس؛ وتتمو في مناطق كثيرة هناك، أشجار الزيتون وكروم العنب، وثمة علاوة على ذلك مراعي شاسعة لشتى أنواع المواشي. وتكسو قمم الجبال التي ترتفع فوق هذه البلاد، غابات من مختلف أنواع الشجر. فيوجد هنا أكبر كمّ من شجر ستيراكس⁽¹⁾، وهي شجرة قصيرة مستقيمة يصنعون من خشبها مزاريق الستيراكس التي تشبه مزاريق الزعرور. ويعيش في داخل جذوع هذا الشجر نوع من ديدان الخشب. وتلتهم هذه الدودة الشجرة حتى أعاليها، وترمي وراءها ذرات خشبية تشبه نشارة الخشب أو النخالة الخشبية، فتتشكل حول جذور الشجرة أكوام من النشارة، ثم لا يلبث أن يرشح من هناك سائل ما سرعان ما يتكثف كالصمغ. فيسيل قسم من هذا السائل على أكوام الطحين الخشبي المتراكم عند جذور الشجرة ويختلط به وبالتراب، وتبقى منه كمية ما تتكثف على السطح وتبقى شفافة صافية؛ ويتجمد القسم الآخر من السائل الذي يسيل على سطح الجذع ويبقى نقياً أيضاً. فيصنعون من السائل الملوّن غير النقي خليطاً من الطحين الخشبي والتراب، وهو عجينة فوّاحة أكثر من السائل النقي، لكنّها تقصّر عنه من حيث الخاصيات الأخرى (وهذا ما لا يعرفه أكثرهم). ويستخدم التقاة الورعون هذه العجينة بكميات كبيرة كطيب للتبخير. وتشتهر أيضاً زهرة السوسن السيلفية التي يصنعون منها نوعاً من المراهم. ولا يوجد في الأراضي التي تحيط بالمدينة، وكذلك في منطقة السيلفيين سوى عدد قليل من المعابر، لأنّ هذه البلاد الجبلية مليئة بالجروف والانهدامات التي تشكل مع الأنهار الأخرى نهريّ إيبريميدونت وكيستري اللذين يجريان من الجبال السيلفية ويصبّان في البحر البامفلي. وثمة على الطرقات جسور. وبسبب وعورة طبيعة بلادهم لم يعان السيلفيون من سيطرة أيّ قبائل أخرى على بلادهم، وأفادوا من كلّ ثمار أرضهم وغلّالها بسلام وطمأنينة. لكنّهم خاضوا حروباً

سـتـرابـون _____ الجـغـرافـيـا

مستمرة ضدّ الملوك الذين سعوا إلى السيطرة على شطر بلادهم السفلي في بامفليا وعلى هذا الجانب من طوروس. أمّا فيما يخصّ علاقاتهم مع الرومان، فقد تلقوا منهم هذه الأرض حيازة مشروطة. وأرسلوا إلى الإسكندر سفارات عرضت عليه خضوعهم لإرادته كأصدقاء. وهم الآن خاضعون خضوعاً تاماً للرومان، ويعدّون جزءاً من منطقة كانت فيما مضى تحت سلطة أمينتا.

_____ الفصل الثامن _____

1- كما ذكرنا آنفاً⁽¹⁾، يجاور البيثنيين من الجنوب الميسيسيون والفريجيون الذين يعيشون قرب ما يسمّى الأوليمب الميسيسي. وينقسم كلّ من هذه الأقوام إلى فريقين. فيدعى أحد شطري فريجيا باسم فريجيا الكبرى، وهي التي حكمها ميداس، واستولى الغلاطيون على جزء منها. ويدعى شطرها الآخر فريجيا الصغرى، وهي التي تقع عند الهليسبونت وقرب الأوليمب، أي تلك التي تدعى فريجيا إيبىكتيت. وعلى نحو مماثل هناك ميسيا أوليمينا التي تتاخم بيثينا وفريجيا إيبىكتيت؛ وبحسب أرتميدور أنّ الميسيسيين الذين كانوا يعيشون على ذلك الجانب من إيستر، قد استولوا عليها؛ وهناك أيضاً ميسيا أخرى عند كايك وبييرغامينا، وهي تمتدّ حتّى تيثرانيا ومصبّ هذا النهر.

2- وقد أشرت مراراً⁽²⁾ إلى أنّ هذه المناطق قد تداخل بعضها مع بعض إلى درجة لم يعد معروفاً عندها ما إذا كانت المنطقة الواقعة عند جبل سيبييل الذي دعاه القدماء فريجيا، جزءاً من فريجيا الكبرى أو الصغرى، ولذلك يدعى تانتالوس فريجيا وكذلك بيلوبس ونيوبا. ومهما كان الأمر فإنّ التداخل ظاهر. فيبيرغامينا، وإيلايتيدا، حيث يصبّ كايك في البحر، وكذلك تيثرانيا الواقعة بينهما (حيث عاش تيثرانس وتربّي تيليث)، تقع كلّها بين الهليسبونت والمنطقة الواقعة قرب جبل سيبييل ومغنيسيا، والمنطقة الواقعة عند سفوح سيبييل. ولذلك يصعب، كما كنت قد أشرت، أن نحدّد كيف يمكن أن يكون

الميسيسيون والفريجيون منفصلين.

3- كما يختلط الليديون والميونيون (الذي يدعوهوم هوميروس ميونيين) إلى حدّ ما مع هذه الأقوام، ومع بعضهم بعض؛ وبعضهم مع بعض لأنّ بعضهم يرى فيهم قوماً واحداً، بينما يرى فيهم آخرون قومين مختلفين، وقد اختلفوا مع الميسيسيين

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثامن

والفريجيين، لأنّ الميسيسيين، كما يقول بعضهم، كانوا تراقيين، بينما يرى آخرون (على خلفية رواية قديمة) أنهم كانوا ليديين. ويروي هذه الرواية الليديّ كسانثوس ومينيكراتوس الإيليّ، اللذان يردّان أصل اسم الميسيسيين إلى كلمة mysos، وهو الاسم الذي يدعو الليديون به شجرة الزّان. وينمو هذا الشجر بكثرة في محيط الأوليمب. ويروي أنهم كانوا يرسلون كلّ عاشر شخص من أفراد القبيلة إلى هناك تقدمة للإله. وأحفاد هؤلاء هم الميسيسيون المتأخرون الذين دُعا باسمهم هذا المأخوذ من اسم شجرة الزّان. ويزعمون أن لغتهم تشهد على ذلك، فهي خليط من الليدية والفريجية. لقد عاش الميسيسيون لبعض الوقت في محيط الأوليمب، ولكن بعد أن ترك الفريجيون تراقيا وقتلوا ملك طروادا والبلاد المجاورة واستقروا هنا، استوطن الميسيسيون أعالي منابع كايك قرب ليديا.

4- وما يساعد على إنشاء مثل هذه الروايات هو تخالط القبائل التي تعيش هنا بعضها مع بعض، وخصوبة أراضي هذا الجانب من نهر هاليس، خاصة الشريط الساحلي. ولذلك كانت هذه البلاد تتعرّض للغزو من شتّى الجهات، ودائماً من القبائل التي تسكن البرّ المقابل، أو كانت الشعوب المجاورة يهاجم بعضها بعضاً. وكانت الاجتياحات والهجرات تحدث بشكل رئيس في زمن حرب طروادا وبعدها عندما تملك البرابرة والإغريق شغف الاستيلاء على أراضي الآخرين. وعلى وجه العموم كانت هذه الظواهرات حاضرة حتّى قبل حرب طروادا. فعندئذٍ أيضاً كانت قبيلة البيلاسيفيس موجودة، وكذلك الكافكونيون والليليغيس. وكما قلت من قبل⁽³⁾، إنهم في الزمن القديم كانوا يتيهون في كثير من أرجاء أوروبا. ويقدم لنا هوميروس هذه القبائل حليفة للطرواديين، لكنّها ليست وافدة من البرّ المقابل. إن ما يروى عن الفريجيين والميسيسيين يرقى إلى زمن أقدم من حرب طروادا. فوجود الليكيين منقسمين إلى فريقين يجعلنا نحتمّن أنهم كانوا قبيلة واحدة، سواء كانوا الليكيين الطرواديين، أو الليكيين الذين كانوا يعيشون قرب كاريا واستعمروا أراضي القبائل الأخرى⁽⁴⁾، وقد يكون الأمر نفسه صحيحاً بالنسبة للكيليكيين أيضاً، لأنهم ينقسمون إلى مجموعتين⁽⁵⁾. بيد أننا لا نستطيع أن نسوق شواهد من هذا النوع تؤكّد أنّ الكيليكيين المعاصرين كانوا موجودين قبل حرب طروادا. ولعلنا نستطيع أن نقرّ بأنّ تيليث جاء مع والدته من أركاديا. وعندما ارتبط مع تيثرانس بأصرة النسب عبر زواج والدته من هذا الأخير، باتوا يعدّونه ابناً للملك، فورث عرش الميسيسيين.

5- لقد كان الكاريون والليليغيس في الأزمنة السابقة سكان جزر، ثم صاروا بمساعدة الكريتيين إلى سكان برّ. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنّ الكريتيين هم الذين أسّسوا ميلتوس (إذ اختاروا ساربيدون الميلتوسي لتأسيس مستعمرة في كريت)، كما سكنوا ثيرميلا الواقعة في ليكيا المعاصرة. فيروى أن ساربيدون شقيق مينوس ورامانثوس هو الذي قاد هؤلاء المستوطنين، ودعا قبيلة الميليين السابقين، ثيرميليين (بحسب هيرودوت)⁽⁶⁾، وكان هؤلاء يدعون قبل ذلك كلّه سوليميين. ولكن عندما وصل ليكوس بن بانديون إلى هناك دعا القبيلة الليكية باسمه. وعلى هذا النحو فإن هذه الرواية تقدّم السوليميين والليكيين قبيلة واحدة، لكن هوميروس يفرّق بينهما. وعلى أيّ حال فإن بيلليروفون عندما توجه من ليكيا،

مضى بعد ذلك ليحارب السوليميين، الشعب المجيد،

(الإلياذة VI، 184)

ويقول الشاعر، إن ابنه بيساندرس⁽⁷⁾،

أطاح به أريس، عندما كان يحارب السوليميين

(الإلياذة VI، 204)

ويتحدّث هوميروس عن ساربيدون بصفته مواطناً ليكياً⁽⁸⁾.

6- لكنّ خصوبة البلاد التي أتحدّث عنها⁽⁹⁾، كانت مكافأة حربية معتادة للأقوياء الذين ينتصرون، وهذه حقيقة يؤكّدها كثير من الأحداث التي وقعت قبل حرب طروادا وبعدها، فحتى الأمازونيس تجرّان وهاجمن هذه البلاد. ويقال، إن بريام، وكذلك بيلليروفون، شتّ حملات ضدّ الأمازونيس. وهذا ما تؤكّده تسمية المدن القديمة بأسماء الأمازونيس. وثمّة تلّ في سهل إيليون:

يدعوه الناس منذ القدم باتييا،

لكنّ الآلهة الخالدين يدعونه قبر الخفيفة الساقين ميرينا.

(الإلياذة II، 813)

ويقولون، إنّ ميرينا كانت واحدة من الأمازونيس، وقد استنتجوا هذا من صفتها؛ ويقال، إن الجياد كانت تدعى «رمّاحة جيّدة» بسبب سرعة عدوها. ولذلك دعيت «خفيفة الساقين»، لأنها كانت تقود مركبتها بسرعة. وعلى النحو نفسه دعيت

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثامن

مدينة ميرينا باسمها. وقاسمتها الجزر المجاورة المصير عينه بسبب خصوبة أراضيها؛ ومنها وفق شهادة هوميروس الدقيقة، جزيرة رودوس وجزيرة كوسوس اللتان استوطنهما الإغريق قبل حرب طروادا⁽¹⁰⁾.

7- بعد حرب طروادا أدت هجرات الإغريق والتريريين، وغزوات الكيميريين والليديين، ثم الفرس والمقدونيين، وأخيراً الغلاطيين إلى اختلال كل شيء واختلاط كل شيء. ولم ينشأ هذا الغموض نتيجة للتغيرات التي حدثت، بقدر ما جاء نتيجة للخلافات بين المؤرخين الذين نقلوا معلومات متبانية عن الحدث عينه. فقد دعوا الطرواديين فريجيين (كما فعل التراجيديون على سبيل المثال)، والليكيين كاريين، والأمر نفسه بالنسبة للشعوب الأخرى. وفيما يتعلّق بالطرواديين، فقد تحوّلوا من شعب مغمور لا أهمية له إلى شعب جبّار بات ملوكه ملوك الملوك، وأعطوا الشاعر وشارحي شعره أساساً ليسألوا أنفسهم: ما الذي ينبغي أن يدعى طروادا على وجه التحديد. فهوميروس دعا الذين حاربوا إلى جانب الطرواديين كلّهم طرواديين، وعلى النحو عينه دعا خصومهم كلّهم دانائيدس وآخيين. ولكن غنيّ عن البيان القول، إننا لن ندعو بافلاغونيا، ولا كاريًا وجارتها ليكيا، جدياً طروادا. وأنا أقصد هنا إلى قول الشاعر:

يندفع أبناء طروادا بصخبهم وصراخهم كالطيور،

(الإلياذة III، 2)

وقوله عن خصومهم:

وكان الأرغوسيون يتقدمون بصمت، وهم يتنفّسون القتال.

(الإلياذة III، 8)

كما يقول على غير ذلك أيضاً مستخدماً كثيراً من مختلف التعابير. ومع أنّ الأمر على هذا النحو فعلاً، إلا أنه ينبغي أن نناقش كلّ حدث على حدة. وإذا ما أغفلت أيّ شيء من التاريخ القديم، فينبغي تجاوز هذا (فهمّة الجغرافيا ليست في هذا)، والالتفات إلى ميدان الحاضر.

8- يرتفع فوق البروبونتيديا جبلان: الأوليمب الميسيسي وإيدّا. وتقع أرض البيثينيين عند سفوح الأوليمب، بينما تقع طروادا بين إيدّا والبحر مجاورة الجبل. وسأقدم لاحقاً⁽¹¹⁾ وصفاً لطروادا التي تجاورها؛ أمّا الآن فسأصف المنطقة التي تحيط بالأوليمب، والمناطق التي تليه مباشرة وصولاً إلى طوروس والمناطق الموازية التي سبق

وصفها. فالمنطقة التي تحيط بالأوليمب تعجّ بكثافة سكانية عالية؛ وتغطي قمم الجبل أشجار باسقة جداً، وتقع هناك أماكن وهبتها الطبيعة تحصينات منيعة وجد اللصوص وقطاع الطرق ملجأً آمناً فيها. وغالباً ما يبرز من هذه العصابات تيران قادرون على الإمساك بالسلطة لزمان طويل، ومن هؤلاء في زمننا الحاضر، التيران كليون الذي كان زعيم عصابات من قطاع الطرق.

9- ويتحدّر هذا الأخير من قرية غوردديوس التي أعلى شأنها فيما بعد وضاعف حجمها وجعل منها مدينة دعاها يوليوبوليس. وفي الأول اتخذ كليون هذا من حصن يدعى كاليدديوس ملجأً ونقطة انطلاق لأعماله اللصوصية. وقد تبين أن قاطع الطريق هذا كان ذا نفع لأنطونيو، لأنه هاجم جامعي الأموال للابينوس⁽¹²⁾ عندما كان هذا يملك آسيا⁽¹³⁾، وأعاق سير استعداداته القتالية. وفي أثناء حرب أكسيوم خان كليون أنطونيو وانتقل إلى جانب القائد قيصر الذي أغرقه بآيات التشريف التي فاقت خدماته، فعلاوة على ما كان قد منحه له أنطونيو نال منجأً أخرى من قيصر. وعلى هذا النحو يكون كليون قد تحوّل من قاطع طريق إلى حاكم؛ فقد صار إلى كاهن لزيوس الأبريتيني (إله ميسيبي)، وامتلك شطراً من مورينا (وهي إحدى مناطق ميسيا، مثلها مثل أبريتيا)، ثم نال قبيل وفاته منصباً كهوتياً في كوماننا التي على البوننتس. فقد توفي بعد شهر واحد من تسلّمه هذا المنصب. لقد أهلكته أزمة مرضية حادة ألمت به، وربما تكون التخمّة قد قتلتها، أو غضب الإلهة (كما يقول خدم المعبد). لأنّ مسكن الكاهن والكاهنة يقع داخل سياج الأرض المقدّسة؛ وإضافة إلى المحرّمات الدينية الأخرى، كان محرّماً تحريماً قاطعاً هنا استخدام لحم الخنزير في الطعام، وكذلك كانت الحال في المدينة كلّها إذ كان يمنع منعاً باتاً إدخال الخنزير إليها. ولكنّ كليون أظهر من اللحظة الأولى لتسلّمه المنصب الكهنوتي، دينه كقاطع طريق وانتهك هذا التحريم كما لو أنه لم يأت إلى هنا كاهناً بل مدّس مقدّسات.

10- هذا هو جبل الأوليمب. إلى الشمال منه يعيش البيثينيون، والميغدونيون، والدوليونيون؛ ويملك الميسيبيون والإبيكتيتيون ما تبقى من المنطقة. ويطلق اسم الدوليونيين أساساً على الشعب الذي يقطن عند كيزيك، من نهر إيسيب حتّى رينداك وبحيرة داسكيليتيدا، أمّا الميغدونيون فهم القبيلة التي تسكن بعدهم مباشرة حتّى منطقة الميرليانيين. وإلى الأعلى من بحيرة داسكيليتيدا تقع بحيرتان كبيرتان أخريان: أبولونيتيدا وميليتوبوليتيدا. وتقع عند بحيرة داسكيليتيدا مدينة داسكيلوس، وعند

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثامن

بحيرة ميليتوبوليتيدا مدينة ميليتوبوليس؛ وتقع عند البحيرة الثالثة مدينة تدعى أبولونيا التي على رينداك. ويعود أكثر هذه المناطق الآن للكيزيكيين.

II - وكيزيك هي جزيرة في البروبونتيدا تتصل بالبرّ بجسرين. وتتميّز هذه الجزيرة بخصوبة فائقة، ويصل امتداد محيطها إلى ما يقارب 500 مرحلة. وعند الجسرين مباشرة، تقع على الجزيرة مدينة تحمل اسمها نفسه، وميناءان يمكن إغلاقهما، إضافة إلى أكثر من 200 حوض للسفن. ويقوم شطر من المدينة على مكان مستوٍ وشطرها الآخر عند الجبل الذي يسمّى أراكتون-أوروس⁽¹⁴⁾. ويعلو فوق هذا الجبل جبل آخر له قمة واحدة هو جبل دينديم؛ ويقوم على هذا الجبل معبد دينديمينا، أمّ الآلهة الذي بناه الأرغونيون. وتنافس هذه المدينة مدن آسيا الكبرى بحجمها وتجهيزها الرائع في الشؤون المدنية والشؤون العسكرية على حدّ سواء. ومن الواضح أن مدينة كيزيك قد جهّزت ونظّمت شؤونها وفق نمط مدن الرودوسيين، والماساليين، والقرطاجيين القدماء. ولكني سأتجاهل وصف الشطر الأكبر من هذه المدينة. ففي كيزيك ثلاثة مديرين للمباني العامّة والشؤون العسكرية، وثلاث شخصيات تدير شؤون المخازن: مخزن الأسلحة، ومخزن الآلات القتالية، ومخزن الأقماع. ويحمي خليط «التراب الخلكيدي»⁽¹⁵⁾ الأقماع هنا من التعفن. وقد ظهرت لهم فائدة هذا التدبير أثناء الحرب ضدّ ميتريدات، لأنّ الملك هاجمهم على حين غرّة بجيش قوامه 150.000 من المشاة، وأعداداً كبيرة من الفرسان، فاستولى على الجبل الذي يعلو قبالة المدينة (والذي يدعى أدراستيا)، وعلى ضاحيتها. ثمّ زحف ميتريدات عبر البرزخ الذي يعلو فوق المدينة وبدأ حصار كيزيك من جهة البرّ ومن البحر بأربعمئة سفينة. لكنّ الكيزيكيين صدّوا هجمات ميتريدات كلّها، وحفروا تحت الأرض نفقاً للقاء نفق الملك، وكادوا أن يأخذوه أسيراً. لكنّ ميتريدات استبق هذه الكارثة وغادر مخبأه في الوقت المناسب. وعلى الرغم من أنّ القائد الروماني لوكولاً تأخّر، إلّا أنه مع ذلك استغلّ ستار الظلام وأرسل إلى المدينة قوّة دعم. وفي الوقت نفسه هبّت لمساعدة الكيزيكيين أيضاً المجاعة التي ضربت حشود الخصم (وهو ما لم ينجح الملك في أن يتوقّع حصوله مسبقاً)؛ فاضطر إلى الانسحاب متكبّداً خسائر كبيرة. فكافأ الرومان المدينة، وهي لا تزال مدينة حرّة حتى يومنا هذا، وتملك مساحات شاسعة من الأراضي، بعضها منذ القدم، وبعضها الآخر أهدها لها الرومان. فالكيزيكيون فعلاً يملكون شطراً من طروادا، وعلى وجه التحديد، الشطر الممتدّ وراء نهر إيسيب،

وحول زيليا، إضافة إلى سهل أدراستيا، كما يمتلكون أيضاً جزءاً من بحيرة داسكيليتيدا (ويملك البيزنطيون جزءها الآخر). وعدا عن دوليونيدا وميغدونيديا تخضع لسلطانهم أيضاً منطقة شاسعة تمتدّ حتّى بحيرة ميليتوبوليتيدا وبحيرة أبولونيديدا مباشرة. ويجري عبر هذه المنطقة نهر رينداك الذي تقع منابعه في أزانيتيدا. ويستقبل رينداك بعد ذلك بين ما يستقبل من الأنهار التي تجري في ميسيا الأبريتينية نهر ماكيسستوس (الذي ينبع من أنكيرا الواقعة في أباسيتيدا)، ثمّ يصبّ في البروبونتيدا قبالة جزيرة بيسبيكوس. ويعلو في جزيرة الكيزيكيين هذه جبل أرتاكا الذي تكسوه غابات جيّدة. وتقع أمام الجبل جزيرة تحمل اسمه عينه، وعلى مقربة من هنا تقع رأس بحرية تدعى ميلان، على الطريق إذا أبحرت من كيزيك إلى برياب.

12- ومن مدن فريجيا إبيكتيت المدن الآتية: أزانا، وناكوليا، وكوتيايوس، ودوريلوس، وكادا (مع أن بعضهم يعيد كادا لميسيا)، وميدايوس. وتمتدّ ميسيا في عمق البلاد من أوليمينا حتّى بيرغامينا والسهل الذي يدعى كايكا. فهي على هذا النحو، تقع بين جبل إيّدا وكاتاكياومينا⁽¹⁶⁾ التي يعيدها بعضهم لميسيا، وبعضهم الآخر لميونيا.

13- وتمتدّ فوق فريجيا إبيكتيت نحو الجنوب، فريجيا الكبرى التي تترك على يسارها بيسينونت، ومنطقة الأوركا أوركيين، وليكاونيا، وتترك على يمينها الميونيين، والليديين، والكاريين. وتتضمّن فريجيا إبيكتيت أيضاً ما يدعى فريجيا باروريا⁽¹⁷⁾، وفريجيا التي عند بيسيديا، والمنطقة المتاخمة لأموري، وإيفمينا، وسينادا، ثمّ أفاميا كيبوت، ولاوديكا. وهذه المدن الثلاث الأخيرة، هي أكبر مدن فريجيا. وتقع على مقربة منها مدن صغيرة أخرى، وأماكن أخرى، [بينها]⁽¹⁸⁾ أفروديسيادا، وكولوسّا، وثيميسوني، وساناي، وميتروبوليس، وأبولونيادا؛ وإلى الأبعد منها تقع بيلتا، وتابا، وإيفكاريا، وليسيادا.

14- وفي فريجيا باروريا شيء ما يشبه السلسلة الجبلية التي تمتدّ من الشرق إلى الغرب. وعند سفوحها على الجانبين ينسبط سهل شاسع. وعلى مقربة منه تقع مدينتان: إلى الشمال فيلوميلوس، وعلى الجانب الآخر أنطاكيا التي في بيسيدا؛ وتقع الأولى في السهل، بينما تقوم الثانية فوق تلّ (فيها مستعمرة رومانية). أمّا أنطاكيا فقد بناها الماغنيطيون الذين كانوا يسكنون على مياندريس. وحرّر الرومان هذه المدينة من سلطة الملوك حينما منحوا إيفمين⁽¹⁹⁾ ما تبقى من آسيا على هذا الجانب كلّه. وكان يوجد

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثامن

هنا كهنوت ما يدعى كهنوت مين أركيوس⁽²⁰⁾، ومعه كثرة كثيرة من العبيد المعبديين والأراضي المقدسة. وبعد وفاة أمينتا قضى على هذا الكهنوت مبعوثون أرسلوا للإشراف على تركته. أمّا سينادا فهي مدينة صغيرة يمتدّ أمامها سهل مزروع بأشجار الزيتون يصل طوله إلى ما يقارب 60 مرحلة. وتقع وراء قرية دوكميا ومقلع لحجارة المرمر السينادي (هكذا يدعوه الرومان، مع أن السكان المحليين يدعونه «دوكيمي» أو «دوكيمبوس»). وفي بادئ الأمر كانوا يستخرجون من المقلع فقط كسرات صغيرة من المرمر، أمّا الآن وبسبب شغف الرومان بالبذخ، باتوا يقطعون أعمدة كبيرة قطعة واحدة تشبه من حيث تنوّع ألوانها مرمر الألباسر. وعلى الرّغم من أن نقل مثل هذه الشحنات الثقيلة إلى البحر يمثل صعوبة كبيرة، إلّا أنهم مع ذلك ينقلون إلى روما أعمدة وصفائح مرمرية فائقة الجمال.

15- وتعدّ أفاميا مركزاً تجارياً كبيراً في آسيا، فهي تشغل المركز الثاني بعد إفسس. وهي فعلاً نقطة مشتركة لإعادة شحن البضائع الآتية من إيطاليا واليونان. وتقع أفاميا على مصبّ نهر مارسيا الذي يجري عبر وسط المدينة؛ وتقع منابع هذا النهر داخل حدود المدينة. ويندفع تياره صاحباً إلى ضواحي المدينة ليلتقي بعد ذلك مع نهر مياندرس الذي كان قد استقبل قبل ذلك رافداً آخر، هو نهر أورغا، ثمّ يجري هادئاً ساكناً عبر السهل. ومن هنا يجري مياندرس بعد أن تحوّل إلى نهر كبير، عبر فريجيا أولاً، ثمّ يشكّل حدود كاريا وليديا في السهل الذي يدعى سهل مياندرس. وهنا يتعرّج مجراه كثيراً إلى درجة أنهم يدعون كلّ منعرج «مياندرس». وقبيل نهايته يجري مياندرس عبر كاريا نفسها، التي يشغلها الإيونيون الآن، ثمّ يصبّ في البحر بين ميلتوس وبريينا. وينبع هذا النهر من تلّ يدعى كيلينا حيث تقع هناك مدينة تحمل الاسم عينه. وكان أنطوخ سوتير قد هجر سكان كيلينا إلى أفاميا المعاصرة التي دعاها الملك على اسم أمّه، أبامي التي كانت ابنة أرتاباز التي تزوّجها سلوقس نيكاتور. وترتبط بهذه الأماكن روايات أسطورية عن أوليمب ومباريات مارسيسوس وأبوللون. وتقع إلى الأعلى من كيلينا بحيرة ينمو على ضفافها قصب صالح لصناعة مياسم الناي. ومن هذه البحيرة ينبجس منبعا النهرين: مارسيا ومياندرس.

16- ولم تكن لاوديكّا من قبل مدينة لها أهمية تذكر، لكنّها في أيامنا هذه وفي زمن آبائنا اتسعت وتمددت، مع أنها عانت من الحصار الذي ضربه عليها ميتريدات إيفباتور. لكنّ خصوبة تربة البلاد وبعض مواطنيها الأثرياء هيأوا الشروط الملائمة لنموّ

المدينة وازدهارها: في الأول هيرون الذي زين المدينة بكثير من الأبنية التي بناها تقدمه لها ، وترك للشعب تركة تقدر بأكثر من 2000 تالانت من الفضة؛ ثم تلاه الخطيب زينون وابنه بوليمون الذي نال من أنطونيوس ثم من قيصر أغسطس مرتبة ملكية لقاء إقدامه وبسالته. وتسرح في ضواحي لاوديكيا أغنام تتميز بنعومة صوفها وروعته (متفوقة في هذا حتى على الأغنام الميلتوسية)، ولونه الذي يشبه لون جناح الغراب⁽²¹⁾، ويحقق السكان من هذا واردات كبيرة، وكذلك الكولوسيون الذين يعيشون على مقربة ويعملون بصيغ الصوف بلون يحمل اسمهم⁽²²⁾. ويلتقي نهر مياندرس هنا نهر كابروس ونهر ليك. وهذا النهر الأخير نهر كبير جداً؛ ومنه دعيت المدينة لاوديكيا التي على ليك. ويعلو فوق المدينة جبل قدموس، ومنه ينبع نهر ليك، ونهر آخر يحمل اسم الجبل عينه. ويجري القسم الأكبر من نهر ليك تحت الأرض، ثم يخرج إلى السطح ليلتقي مع أنهار أخرى ليشير بذلك إلى أن هذه المنطقة مليئة بالأخاديد وعانت من هزات أرضية قوية. وتعاني لاوديكيا من الهزات الأرضية أكثر من أي منطقة أخرى، وتقع في المنطقة المجاورة مدينة كارورا.

17- وتشكل كارورا حدود فريجيا وكاريا. وهي قرية فيها نُزلٌ للإقامة وينابيع مياهها حارة، يقع بعضها في نهر مياندرس، وبعضها الآخر على ضفافه. ويحكى أن صاحب وكر للموبيقات نزل يوماً في هذه النُزل مع حشد من النساء، ف وقعت هزة أرضية ليلاً أودت به وبالنسوة اللواتي كنّ معه. وحقيقة الأمر أن كل المنطقة القريبة من مياندرس وصولاً حتى الشطر الداخلي من البلاد، تعاني من الهزات الأرضية وحضر الكهوف الجوفية بفعل النار والماء. وبنية الأرض هذه حاضرة في المدى الممتد من السهول حتى «هاردنيوس»⁽²³⁾، وعلى وجه التحديد «هارونيوس» التي عند هيرابوليس، وعند أهراكي في نيسايدس، وعند مغنيسيا وميونت. فالتربة هنا رخوة وهشة، ومليئة بالأملاح، وسريعة الاشتعال⁽²⁴⁾. وقد يكون هذا هو سبب تعرّج مياندرس، لأنه غالباً ما يغيّر مجراه، ويحمل معه إلى الأسفل كميات كبيرة من الطمي، فيرميها في هذا المكان من ضفتيه أو ذاك، أما باقي الطمي فيجرفه النهر إلى البحر. وفي واقع الأمر أن مياندرس حوّل بريينا بالظمي الذي كان يحمله من مدينة تقع على البحر مباشرة إلى مدينة تبعد عنه 40 مرحلة.

18- لقد دعيت فريجيا «كاتاكيكاومينا» التي يملكها الليديون والميسيسيون، باسمها هذا على الأساس الآتي: في مدينة فيلاديلفيا المجاورة لها حتى

الكتاب الثاني عشر ————— الفصل الثامن

جدران المنازل لا يركن إليها لأنها تتعرض يومياً للاهتزاز وتظهر فيها التشققات. ويراقب السكّان على مدار الساعة اهتزاز التربة، وبينون منشآتهم آخذين هذه الظاهرات بعين الحسبان. وبين المدن الأخرى التي عانت من الهزّات الأرضية المتواترة قبل حملة ميتريدات، مدينة أفاميا، ولما جاء الملك إلى هذه البلاد ورأى أن المدينة مهدّمة، وهبها 100 تالانت لإعادة إعمارها. وبحسب الروايات، أنّ حدثاً مماثلاً كان قد وقع في زمن الإسكندر. ولذلك كان من الطبيعي أن يعبد الناس هنا بوسيدون، مع أنهم يعيشون بعيداً عن البحر، وقد دعيت المدينة كيلينا⁽²⁵⁾، إمّا تيمناً باسم كيلينوس بن بوسيدون وكيلينو، وهي إحدى الداناتيس، أو أخذت اسمها من الحجر ولون السواد الذي تسبب الحريق به. ولا ينبغي أن نرى في الروايات التي تروى عن جبل سيبيل وانهاره روايات أسطورية، لأنّ الهزّات الأرضية في زمننا هذا دمّرت مغنيسيا الواقعة على سفوح هذا الجبل، وقد عانت منها في مختلف الأماكن ساردا وأهم المدن الأخرى. لكنّ الإمبراطور الحالي⁽²⁶⁾ أعاد بناءها وقدم الموارد اللازمة لهذه المدينة ولسكّان لاوديكيا، وهذا ما فعله والده قبله حينما نزلت الكارثة بسكّان مدينة ترالاً (عندما انهار الجمنازيوم وأجزاء المدينة الأخرى).

19- كما يمكننا أن نسمع روايات المؤرّخين القدماء عن هذا، منها على سبيل المثال رواية كسانثوس مؤلّف تاريخ ليديا الذي يروي عن صروف القدر التي عانت هذه البلاد منها، وهذا ما أشرنا إليه في مكان ما من وصفنا السابق⁽²⁷⁾. وفي واقع الأمر إنهم ينقلون إلى هنا مسرح أحداث أساطير «أهوال» تيفون، وأساطير الأريميين مزامنين إياها مع «كاتاكيكاومينا»⁽²⁸⁾. وينسب المؤرّخون مثل هذه الخاصيات من غير تردد إلى كلّ المنطقة الواقعة بين مياندرس والليدين، إن بسبب كثرة البحيرات والأنهار، أو بسبب كثرة الكهوف في الأرض فالبحيرة الواقعة بين لاوديكيا وأفاميا، مثلها مثل البحر⁽²⁹⁾، تطلق أبخرة ملوّنة رائحتها كرائحة البالوعات⁽³⁰⁾. ويروى أنهم يرفعون دعاوى قضائية ضدّ نهر مياندرس في كلّ مرّة يجرف فيها الأراضي ويعبث بمعالم حدود البلاد؛ وبعد أن يدان مياندرس تفرض بحقه غرامة مالية تصرف من أجور النقل عبره.

20- ويقع بين لاوديكيا وكارورا معبد يدعى معبد مين الكاري، ويحظى هذا المعبد بتبجيل واحترام استثنائيين. وفي أيامنا هذه نشأت هناك مدرسة كبيرة للأطباء الهيروفيليين⁽³¹⁾ أدارها زيوسكيدس، ثمّ الإسكندر بن فيلاليت، وكما كانت الحال

سـتـرابـون _____ الجـغـرافـيـا

عليه في زمن آبائنا، كذلك الآن أسس هيكيسيوس في سميرنا مدرسة إراسيستراسية⁽³²⁾. لكنّها لم تعد موجودة الآن بالشكل الذي كانت عليه سابقاً⁽³³⁾.

21- ويأتي الكتاب على ذكر بعض القبائل الفريجية الأخرى أيضاً، بيد أنه لا يمكن العثور على أيّ منها الآن في أيّ مكان كان: قبيلة البيريكينتين مثللاً. ويقول ألكمان:

لقد عزف اللحن الفريجيّ، اللحن الكيربيسيّ.

(المقطع 84، كروزبوس)

وثمة كهف في الأرض معروف بأبخرته المؤذية، يدعى كيربيسيّاً أيضاً. ويمكن فعلاً أن نرى هذا الكهف، لكنّ القبيلة التي تسكن ذلك المكان، لم تعد تدعى بهذا الاسم. وفي «نيوبيا» يخلط إيسخيلوس بين مختلف القبائل والأمكنة. فنيوبيا تقول مثلاً، إنها ستتذكر دوماً منزل تانتالوس:

... الذي على التلّ الإيديّ،

حيث مذبح لزيوس الأب هناك

(المقطع 162، 2، ناؤوك)

وتقول أيضاً:

سيبيل في الأرض الإيديّة؛

(المقطع 163، ناؤوك)

أمّا تانتالوس فيقول:

لقد اجتزت هذا الحقل برحابة عشرة أيام طريقه

في الأرض البيريكينية، على أطراف أدراسيا،

حيث إيّداً يضح بخوار الشيران، وثغاء الغنم

والسهل كلّه مخبول بإريخثيوس.

(المقطع 152، 2، ناؤوك)

